الذين لم يعودوا

قصص قصيرة

أُحمد نجيب

الذين لم يعودوا

من وجهة نظري،
الرعب الحقيقي ليس بعيدًا ولا خياليًا.
بل قد يكون قريبًا جدًا من كل واحدٍ منا.

يبدأ حين يختلّ روتين الحياة فجأة.
حين ينحرف المسار المألوف إلى طريق مجهول.
حين يحدث اختلال في النظام.

هناك أشياء لا تظهر دفعةً واحدة.
بل تتسلل.
تدخل حياتك في لحظة تعب.
في طريق جانبي.
في مرآة وقفت أمامها أطول من اللازم.
أو في سرّ قبلت أن تحمله وحدك.

هذه القصص لا تتحدث عن الأشباح.
ولا عن الجن.
ولا عن الماورائيات كما تُروى في الحكايات الشعبية.
هي عن الشقوق الصغيرة في الواقع...
حين يتصرف المكان كأنه يتذكّرك.

وحين يختارك الطريق بدل أن تعبره.
وحين تكتشف أن المعرفة ليست دائمًا نعمة.

أبطال هذه القصص ليسوا شجعانًا.
ولا أشرارًا.
ولا باحثين عن الحقيقة.
هم أناس عاديون جدًا...
تعثّروا في ما لا يجب أن يُرى.
أو سمعوا ما لا يجب أن يُسمع.
أو نجا أحدهم.
ليكتشف أن النجاة نفسها
قد تكون العقوبة.

قد تبدو بعض هذه القصص مألوفة.
كأنك سمعتها من قبل.
أو عشت طرفًا منها.

أو كدت تقف في مكان أحدهم ذات فجرٍ بارد.
وهذا مقصود.

لأن الرعب الحقيقي
لا يأتي من المجهول البعيد.
بل من القريب جدًا...
القريب لدرجة أنك لا تلاحظه
إلا بعد أن يترك أثره فيك.

بعض هذه القصص تجارب مررتُ بها شخصيًا.
أو عشت لحظاتها في خيالي.
وبعضها سمعته من أشخاص مرّوا بها.

وتركت فيهم أثرًا لا يُمحى.
والمهم أنك، في النهاية.
ستدرك أنها قريبة منك بشكلٍ ما.

لذلك...

إذا كنت تقرأ هذه الصفحات ليلًا.
فربما يكون هذا الوقت غير مناسب.
وإذا كنت وحدك.
فربما كان من الأفضل ألا تكون.

لكن إن أكملت القراءة.
فتذكّر شيئًا واحدًا فقط.

بعض الأبواب.
حين تُفتح.
لا تُغلق...
حتى لو تركتها خلفك .

إهداء

إلى أصدقائي،
الذين وثقتُ في آرائهم،
وكانوا ينتظرون قصصي بشغف،
فمنحوني الثقة والجرأة
لأنشر كلماتي دون تردّد.

– وإلى والدي – رحمه الله
الذي جعل من منزلنا مكتبةً كبيرة،
تحتوي على كتب المعرفة والحكايات،
والذي كان يقرأ قصصي وأنا صغير
بفخرٍ وسعادة،
ويشجّعني دائمًا على الاستمرار.

وإلى أمي،
وزوجتي،
وأبنائي،
وأسرتي،
شكرًا على دعمكم،
وثقتكم،
وصبركم الدائم.

استراحة

الساعة 4 قبل الفجر علي طريق مطوبس ..

الجو براد جدًا والأمطار شديدة ..

جوجل أخدني إلي ألعن شبكة طرق في كفر الشيخ و في الكوكب بأكمله ..

ببساطة يأخذني إلي قلب غيط زراعي ويقتعني أنه الطريق الصحيح ..

كنت منقولاً إلي عمل جديد في محطة لإنتاج الغاز الطبيعي في محافظة كفر الشيخ ..

جوجل رسم لي الطريق من نبروه حتي مكان المحطة ..

الطريق في الأصل ليس ممهداً ومع الأمطار تحول لأوحال جعل قيادة السيارة مخاطرة و إحتمالية أن تنزلق مني والسقوط في أقرب ترعة علي جانب الطريق هو الإحتمال الأقرب..

ولن يشعر بي أي أحد حتي شروق الشمس ..

ولكن للضرورة أحكام وكان لابد أن أتحرك مبكراً حتي أصل لموعد بصمة العمل دون تأخير ...

الطريق مظلم ..

وحيد تماماً علي الطريق ..

والبرد ساعد أن النعاس بدأ يتسرب لخلايا مخي ببطء ...

القيادة صعبة فعلاً في تلك الأجواء ..

كان لابد من التوقف و شرب كوب من القهوة الدافئة لإعادة تشغيل مخي من جديد ..

علي مرمي بصري ..

كان هنالك ضوءاً بعيداً..

تقريباً مدخل الي قرية ما علي مسافة 2 كيلو تقريباً ..

فرصة للعثور علي كشك أو أي ونس حتي أستفيق ..

المطر يزداد .. وقبل أن أصل لمصدر الضوء – والذي إتضح أنه بداية لقرية بالفعل – بدأت الشبورة – ضباب – كثيف يغلف المكان .. .

لست خبيراً في الأرصاد .. ولكن شبورة مع أمطار تبدو غير مفهومة ..

أحتاج لسؤال من يفهم في هذه الأمور .

كان هناك لافتة كتب عليها (كفر شديد) .. رفعت إضاءة السيارة تجاه مصدر الضوء..

مقهي في مدخل القرية ..

شعرت بسعادة حيث أن المقهي هو ما كنت أحتاجه بالظبط.

نزلت من سيارتي ودخلت المقهي ..

لأسمع أم كلثوم إذ تقول : كم بنينا من خيال حولنا ؟...

ومشينا في طريق مقمر .. ومشينا في طريق مقمر ......

بالفعل يا أم كلثوم مقمر .. وإن كنت أتمني أن تكملي الوصف بطريق بارد جدًا ..

جلست علي كرسي بجوار الفحم الساخن طلبًا للدفء

جاء رجل كبير السن ورفيع جدًا و أسمر البشرة يقول بصوت مبحوح قليلاً " حمد الله علي السلامة يا حضرت "

نظرت إلي عينيه .. عين منهم خربة تماماً والثانية علي وشك .. وفي عقلي قلت لنفسي " يا حضرت ؟؟ قديمة أوي حضرت دي "

قلت له: " هات قهوة ثقيلة دوبل ساده" ..

" من عينيا " ... بيني وبين نفسي قلت "لأ بلاش موضوع عينيك دي .. هيبقي مشروب مش تمام .. أنا كده بتنمر ؟" ..

آسف والله بس الدماغ تعبت من الإرهاق ..

غاب في المطبخ قليلاً .. فجلست أتأمل المكان ..

مقهي فقير جدًا .. نظافة معقولة .. 6 طاولات ومع كل طاولة كرسيين خشب عتيق الشكل واللون ..

يبدو أن الشبورة بالخارج تزداد وجعلت الرؤية خارج المقهي مستحيلة ..

أنا حتي لا أري سيارتي ..

ركنت رأسي علي الحائط ..

دخل رجل بكرش عظيمة وشنب أعظم ليجلس علي الطاولة المجاورة لي وبصوت جهوري قال: "مرعي .. صباح الفل .. حجر معسل وشاي" ..

رد عليه مرعي من الداخل : " عينيا يا سلطان "

جلس الأخ سلطان .. وإن ظل ينظر لي بثبات وسكوت ...

مرت دقائق وإذ برجل رفيع أسمر بجلباب يدخل وفي يده طفل في عمر ال 10 سنوات تقريبًا يرتدي جلباب هو الأخر ..

جلسوا علي طاولة أخري قريبة وقال: " مرعي .. 2 حاجه ساقعة" ...

منذ أن غادرت نبروه لم أر بني أدم علي الطريق ..

هل بدأ الناس في الإستيقاظ ؟

الغريب أن حتي الرجل الأسمر و إبنه جلسوا وظلوا ينظرون إلي بثبات ...

أعلم أن مظهري غريب تماماً عن المنطقة .. ربما أبدو ملفتًا ..

ولكن النظرات الثابته تلك تبدو وقحه جدًا ومربكه ..

وصل مرعي بالقهوة .. طعمها مر .. ولكن ستفي بالغرض ..

أم كلثوم تستكمل : " وضحكنا ضحك طفلين معاً .. وعدونا فسبقنا ظلنا "

ظلنا ؟؟؟ أم كلثوم بتركز في أمور عجيبة ...

وبينما الكرش العظيم يسحب أنفاسه من المعسل دخل شابين أخرين للمقهي .. "مرعي هات كازوزة و طاولة" ..

طاولة ؟ الفجر ؟؟

مع الإزدحام بدأت أفوق تماماً ... حتي الشابين جلسوا ينظرون إلي بثبات ..

5 أفراد ينظرون جميعًا إلي بثبات ..

نظرت في ساعتي .. دقيقتين علي الفجر ..

حاولت فتح جوجل لمعرفة المسافة المتبقية علي مطوبس ... لا شبكة ..

شربت المتبقي من القهوة علي مرة واحدة ...ونظرت لهم وفي غيظ

قلت " في إيه يا جدع منك له ؟؟ .. ما تخليكم في حالكم ؟"

وجدت ال 5 يبتسمون إبتسامة واسعة !! .. شعرت بالقلق .. وقفت وندهت علي مرعي " حسابي كام ؟"

إندهش مرعي جدًا لسؤالي ثم بدأ يضحك بصوت عالي ..

وبدأت هستريا ضحك من مرعي وال 5 الجالسين وهم ينظرون إلي ويقهقهون .. وبدا كأني أسمع أصوات ضحك لأكثر من 10 فراد في المكان وإن كنت لا أراهم!!

إتعصبت .. وأنا أصرخ فيهم " في إيه؟ "

لم يرد علي أحد .. في حاجه غلط !

أم كلثوم تستمر " وعدونا فسبقنا ظلنا ".!!!!

في نظرة عابرة لاحظت ..

تلك المجموعة ليس لهم ظل ؟؟ بالفعل لا ظل لهم يا أم كلثوم ؟؟

شعرت بغرابة الامر وأن الموضوع خارق للطبيعه بشكل ما وغير مألوف وقررت الفرار بسرعه و قد أصابني الهلع ..

وقفوا جميعا في نفس اللحظة وبسرعة ...

ظلوا ثابتين واقفين في أماكنهم بينما أنا أتحرك للخارج وأنظر إليهم وهم يضحكون ..

خرجت إلي الخارج وسط الشبورة ... ولم يتبعني أحد ..

ركبت سيارتي بينما يقف 3 كلاب ينبحون علي بعد 10 أمتار مني ..

نباح الكلاب كان شديداً .. ولم يقترب أي كلب منهم ..

حاولت تشغيل السيارة .. طبعاً لن تدور ..

توقعت ذلك بالطبع ... ثم سمعت صوت أذان الفجر من بعيد ..

ومع أذان الفجر توقف صوت أم كلثوم ..

وبدأت الشبورة تنقشع ..

بهدوء ...

مع إستمرار الأمطار ..

حتي اختفت الشبورة ...

وأختفي المقهي !!

نزلت من السيارة ..

رأيت الكلاب والتي حافظت علي المسافة بيني وبينهم و إن إستمروا في النباح الشديد ..

نظرت حولي ... مجرد أرض فضاء واسعة ..

تبدو كأنها أرض بور أو شونه ..

لا مقهي ..

لا قرية ..

لا كفر شديد ..

فتحت جوجل وكانت الشبكة مكتملة وصحيحة بصورة أكثر من ممتازه ...

كتبت في البحث " كفر شديد " ...

نتائج البحث لا يوجد !!

جوجل يظهر أن المكان الذي أقف فيه فارغ تماماً !!

هل كنت نائماً و أحلم ؟؟ ممكن ؟؟

صوت الأذان قادم من بعيد ولمحت نور المإذنه..

ركبت سيارتي التي عادت للعمل بكل بساطة وأنا أفرك عيني متجهاً ناحية المسجد ..

لمحت بقعة لونها بني علي قميصي !!..

تحسستها بإصبعي .. خشنة الملمس ..تذوقتها لأفهم مصدر البقعة ..

لأجدها بقعة قهوة ثقيلة دوبل سادة ..!!!

طريق
الزعفرانة
50

كنت مسافراً في ليلة من ليالي نوفمبر 2009 الشتوية متجهاً إلي البحر الأحمر .. راكباً ميني باص (القاهرة – الغردقة) الساعة 9 ليلاً ..

14 راكبا ...

بنتين و 10 شباب و 2 عساكر مجنديين كانوا أخر من ركب..

جلسوا جواري في أول الباص خلف السائق ..

بينما جلس البنتين في الأمام بجانب السائق طبعاً كالمعتاد ..

وباقي الركاب كانوا شباباً .. غالباً من العاملين في الغردقة.

السائق كان راجلاً كبيراً في السن وعلي الأغلب في منتصف الخمسينات ..

مدخن شرهه .. ولكن متزن في القيادة وهذه أهم ميزة ..

علي قرب الساعة 12 ليلاً كنا قد بدأنا طريق الزعفرانة – الغردقة ..

السائق منذ الأنطلاق من القاهرة والراديو علي إذاعة القرآن الكريم بصوت هاديء ..

كل الركاب كانوا قد غطوا في نوم عميق بما فيهم أنا ..

لكني إستيقظت لبضع دقائق عندما قام السائق بتدخين سيجارة وفتح الشباك لطرد الدخان ...

فكان هذا سبباً لجعل الهواء البارد يصفع وجهي ...

كان السائق قد خرج للتو من طريق الزعفرانة في اتجاه رأس غارب ..

هو طريق طويل لا يوجد به أي خدمات ..

كم أكره هذا الطريق ...

مجرد طريق طويل ممل جدًا ومظلم ولا شيء سوي ضوء القمر والذي كان بدراً في تلك الليلة ..

وبعد حوالي 25 كيلو في الظلام الدامس و سيجارة – يبدو أنها كيلوبترا – ولا وجود لأي سيارات أخري معنا علي الطريق ..

بدأ صوت إذاعة القرآن في التشوش ... وعلي ما يبدو كأن إذاعة أخري تتداخل مع إذاعة القرآن علي نفس التردد ..

وفي أقل من دقيقة يبدو أن الإذاعة الدخيلة سيطرت تماما علي الراديو ... وتوقف صوت القرآن تماماً ..

كان الصوت الدخيل يبدو كصوت أنفاس مكتومه ....

لا كلام ..

لا أغاني ...

لا حديث ...

لا شيء ...

مجرد أنفاس ثقيلة ..

كنت بدأت التركيز وبدأت النظر إلي باقي الركاب ..

الكل في سبات عميق وقد تدلي رؤوسهم يميناً و يساراً ...

ولاحظت أن السائق – المتزن - يقود بسرعة غير معتادة ...

أظنه قد تجاوز ال 160 كيلو / الساعة ...

صوت الأنفاس يتزايد ...

بدأت أسمع صوت شخص يتحدث وصوت همهمه مكتومة ...

الحديث غير واضح ...

ثم بدأت أسمع أصوات هوب هوب هوب هوب ...

كأنها أصوات تدريبات عسكرية ....

صوت التدريبات لم يكن من الراديو ... بل من حولنا ..

من الطريق نفسه ..

هل يوجد وحدة عسكرية قريبة ؟؟

وتدريبات في منتصف الليل ؟؟ ... الجيش شقاء فعلاً ..

إرتفع الأدرينالين في دمي بفعل التوتر ..

من سرعة السائق ومن الأصوات ..

فسألت السائق بصوت هاديء :" ما تهدي شوية يا أسطي !! و إية الأصوات دي؟"

رد ببرود مصطنع وهدوء :" ما تشغلش بالك إنت .. هيروح دلوقتي .. نام إنت وأنا هوطي صوت الراديو" ...

قلت بإندهاش :" هو أنا مشكلتي إني مش عارف أنام ؟ أنا بقولك إنت مسرع ليه ؟ وإيه صوت الراديو ده؟"

لم يرد السائق ولم يعلق بمنتهي قلة الذوق ...

ملت برأسي جانباً كي أنظر إليه من الجنب ..

كانت شفتاه تتلو آيات قرآنية وعينيه ثابته علي الطريق ممسكاً بعجلة القيادة بقوة وبثبات ...

إزداد قلقي .. نظرت للركاب النائمين ... ولكن..

كان الجنديين متيقظين وينظرون بثبات وتركيز ألي الأمام صوب الطريق ..

وبعد دقيقة بالتمام تكلم أحدهم للسائق طلباً للتوقف :" علي جنب يا أسطي أحنا نازلين هنا "..

نظرت حولي ... المكان مهجور جدًا ...

توقف السائق بجانب الطريق ..

نزل الجنديين دون دفع الأجرة ...

ولم يطلبها السائق !!..

نزل الجنديين في هدوء و مشوا في إتجاة الصحراء ...

وتحرك السائق مكملاً الطريق من جديد ...

وبعد 5 دقائق .. بدأت الإذاعة الدخيلة تختفي بالتدريج و عادت إذاعة القرآن للعمل من جديد ..

وعاد السائق للسير بسرعته الهادئة ...

في رأس غارب .. توقف السائق في إستراحة إسمها "الخليج" ..

نزل الجميع لدخول الحمام و الإستراحة ..

وجلس السائق علي طاولة وحيداً .. وأتوماتيك قام العاملون في الكافتريا بإنزال الفول و البيض والشاي للسائق ..

يبدو أن الموضوع روتين هنا و طلب السائق معروف مسبقاً..

لم أستطع أن أتمالك نفسي و جلست علي نفس طاولة السائق

هو منهمك في الأكل .. ملامحه ملامح صعيدي رزين ..

سألته :" ما ردتش عليا ليه يا أسطي لما سألتك ؟"

رد وهو ينظر لي بتمعن وقد توقف عن الأكل :" معلش يا ولدي ما تآخذنيش ..بس مكنتش عايز أعمل قلق خصوصاً إن كان في ركاب صحيوا علي كلامنا وبيسمعونا" ..

بدهشة شديدة سألته : "قلق ؟؟ قلق ليه؟"

رد عليا :" انا الي كنت مستغرب إنك صاحي لدرجة إن شكيت فيك إنك واحد منهم ؟"

الكلام يزداد غموضاً :" هما ؟؟ هما مين ؟"

سكت قليلاً .. كان متردداً ما بين أن يحكي أو يصمت ..

بعد ثوان من التفكير قال :" بص هي حكاية غريبة .. بس إحنا السواقين علي الخط عارفينهم وإتعودنا عليهم "..

مسك كوب الشاي وأخد رشفة كأنه يبتلع الكلمتين و أكمل :" رحلة نص الليل دي أوقات – مش كتير – بيركب معانا فيها عساكر .. لا بنكلمهم ولا نسألهم نازلين فين ولا جايين منين ولا بنطلب منهم أجرة .. عشان هما أصلاً – الله أكبر – ربنا يحفظنا يعني مش بني أدمين "..

كنت أنظر إليه في سخرية ومحاولاً إستيعاب الكلام .. بيهزر ولا بيتكلم جد ده ؟؟ ملامحه تقول أنه جد جدًا

بدأت أضحك ... ضحكت وأنا في قمة الإندهاش وأقول :" مش بني أدمين إزاي بس يا عمنا ؟؟ أنا لسه بقول في بالي إنت راجل رزين وعاقل" ..

نظرات غضب في عينيه وهو يقول بخشونة :" وأنا ههزر معاك ليه أنا ؟"

ثم بنظرة إستهزاء أكمل :" أنا عارف من الأول إنك مش هتصدق .. طبيعي إنك ما تصدقش .. بس عموماً إحنا عارفينهم و إتعودنا عليهم وبنسميهم الشهداء" .

بدأ ينهمك من جديد مع طبق الفول .. وأكمل و هو يلوك الطعام :" القصة أن الطريق هنا معروف هتلاقي عليه بالليل جنود ماشين علي جنب الطريق , أوقات بيقطعوا علينا الطريق كمان .. كثير من زمايلانا عملوا حوادث وإنقلب بيهم الباص علي الطريق علشان يتفادي يخبطهم .. بيطلعوا يربكوك ويوتروك .. أوقات تلاقيهم بيجروا ورانا بنفس سرعتنا .. "

سكت ليبتلع لقمة البيض ثم أكمل " مين دول؟؟ أيه قصتهم ؟؟ بصراحة يا ولدي أنا معرفش.."

" القصص دي هتسمعها كتير علي خط الزعفرانة و خط الشيخ فضل .. عموما أنا أول ما لقيت الراديو إتغيير عرفت إن الجنود الي معانا هيطلبوا ينزلوا " ..

كنت أسمع الكلام وأنا في قمة الاندهاش .. السائق لا يخترع القصة ..

بل حدثت أمام عيني..

لكن خوفي ورفضي لتصديق القصة جعل شعوري ما بين الإندهاش والرعب ..

كان السائق قد توقف عن الحديث طلباً لبعض الخصوصية مع الفول والبيض ..

فا قمت أنا الآخر طلباً لقهوة من الكافتريا تبقيني متيقظاً ومنتبهاً للباقي من رحلة الأشباح هذه ..

وقبل أن أنصرف قال السائق :" بلاش تحكي للشباب الي معانا الي أنا حكيتهولك ... مش هنستفاد حاجه إن نخليهم يقلقوا أو يخافوا" ..

سألته متذكراً :" وإيه العلاقة بين الكلام ده و الي حصل للراديو ؟؟"

ضحك وقال :" وأنا إيش عرفني يا ولدي ؟!! هي رسالة زي تنبيه كده إننا دخلنا تحت سيطرتهم وخلاص .. المهم نخرج منها" ..

ثم قال وهو يرشف من كوب الشاي" يلا .. الله يرحمهم ويرحمنا"

تركته وأنا أحمل كوب القهوة أسير وأفكر بذهني في كلام السائق ..

من هم حقاً وما قصتهم ؟ ...

الهواء البارد يلفح وجهي قبيل ساعات الفجر ...

إبتعدت قليلاً عن ضوضاء الكافتريا و صخب الناس وإقتربت قليلاً من الطريق ..

أري من بعيد ..

مجموعة من الجنود تسير بخطوات ثابته هناك تحت ضوء القمر ..

خطواتهم ثابته ..

سرعتهم ثابته ..

يسيرون في إتجاه الصحراء مبتعدين ..

حج رجب

كنت قد إعتدت الجري قبل الفجر في الحديقة المحيطة بالمربع السكني الذي أسكن فيه ..

ميزة الكومباوند أن العمارات موزعة مربعات ..

ووسط المربعات جنينة ذات ممشي رائعة جدًا ومخصصة للجري ..

طول ضلع المربع حوالي 100 م تقريباً ..

الأجواء مظلمة وهادئة ولا أحد غيري في المنطقة ..

أخذت الإيربود ومزيكتي وبدأت جري الساعة 4.10 صباحاً ..

الفجر لم يأذن بعد ..

نظرت بعيدًا وجدت رجلاً يجري جري هاديء قادم في إتجاهي ..

حين إقتربنا .. هدي هو من سرعته ونظر إلي بإبتسامة !!

حاولت أن أتبين ملامحه كي أتعرف عليه .. ربما هو شخص يعرفني و أعرفه !!

ملامحة غير واضحة ..

ولبسه غريب غير مهندم ... لم ألحظ سوي إبتسامته وإن كنت قد شعرت أيضاً بعدم الإرتياح ..

لم أهتم و تابعت الجري بما أني لا أعرفه و تجاهلته .. وهو أيضاً لم يحاول التحدث إلي ..

بينما جاستن تمبرلك في الإيربود يتابع الغناء :

There ain't no angels here on the dance floor

إنتهيت من الضلع الأول من المربع جرياً .. وبدأت في الضلع الثاني ..

لأجد نفس الشخص قادماً من بعيد ..

من بداية نفس الضلع ويجري في إتجاهي !!

كيف إستطاع الإنتهاء جرياً حول المربع بأكمله حتي واجهني من جديد؟..

I been taking my time, but it's all about timing

وللمرة الثانية .. تمهل في جريه قليلاً ويعيد النظر إلي بتركيز شديد وهو يبتسم !!

غريب جدًا.. ماذا يريد مني ؟؟ هل يعرفني؟؟

لا زلت لا أستطيع تميز ملامحه ولا أميز غير أنه يبتسم ...

ومن جديد إستكملت الجري والتجاهل ... وإنتهيت من الضلع الثاني و مع بداية الضلع الثالث ...

رأيته من جديد ...

قادماً مع بداية الضلع !!

هنا توقفت .. هناك شيئاً غير منطقي و غير طبيعي ..

نزعت اللإيربود من أذناي ونظرت خلفي باحثاً إذ ربما أكون واهماً و هناك شخصان يدوران حول المربع !!

لكن .. لا أحد في المربع بأكمله ...

فقط أنا وهو ..

كيف ؟؟ كيف إستطاع الدوران حول المربع بأكمله ليعود في مقابلتي من جديد بينما أنا لازلت في ضلع واحد ؟

بدأت التحرك لقلب الجنينة كي أنسحب ..

مع قرار للهروب الي المنزل فوراً ..

ما يحدث الأن غير طبيعي ..

كانت عيني عليه بينما هو يتابع الجري وعينيه مثبتة تجاهي ..

أنا أنسحب بهدوء مع الحفاظ علي المسافة ثابتة بيني وبينه وبترقب ..

دخلت العمارة وصعدت السلم مسرعاً ..

سمعت صوت باب العمارة يفتح ..

نظرت من الأعلي ...

وجدته !!

الأن هو يتبعني دون أدني شك ..

دخل العمارة و بدأ طلوع السلم بسرعة غير طبيعية !!

مفزوعاً أمام باب الشقة أخرجت المفتاح بسرعة ..

و فجأة أضيء السلم ..

وسمعت صوت لشخص ما هابطاً من الطابق العلوي علي السلم ...

قلبي سيقف من الرعب !!

نظرت متوجساً لأجد جاري الساكن في الأعلي نازلاً لصلاة الفجر في المسجد ...

الحج رجب ..

شعرت بتوتر .. أعدت النظر إلي السلم في الأسفل ... لا يوجد أحد !!

أين أختفي ؟؟

الحج رجب نظر إلي في دهشة و سألني : " مالك يا بشمهندس ؟ فيك إيه ؟"

رددت بقلق : "حج رجب في حد بيلاحقني وطلع ورايا السلم" ..

نظر رجب علي بير السلم ... دقيقة كاملة يفحص بعينيه ..

ثم قال :" مفيش حد يا بشمهندس .. إهدي بس ممكن يكون حد من السكان الي تحت .. الكومباوند أمان ما تقلقش .. تعالي ننزل سوا نصلي الفجر" ..

بيني وبين نفسي كنت مرعوباً .. وعقلي رافضاً للنزول .. مستحيل

" إسبق إنت يا حج "..

دخلت إلي شقتي وأغلقت الباب وفتحت الشباك المقابل لمدخل العمارة ..

أري الحج رجب ماشياً في إتجاة المسجد ..

والرجل الذي كان يلاحقني يسير خلفه !!

والغريب أنه كان ينظر إلي الأعلي .. تجاهي !!

وأظن أنه يبتسم ..

إتجهت بسرعة للشرفة كي أحذر حج رجب ..

للأسف إبتعد عن ناظري ..

سأتصل عليه ... ثواني إنتظار ... التلفون مغلق !

إنتظرته في الصالة وأنا أسمع صلاة الفجر ..

حتي إنتهت ..

إتجهت من جديد إلي الشرفة أنتظر الحج رجب ..

الأن أراه عائداً و الغريب يسير خلفه .. و رجب لا يشعر به ؟؟!!

دخلوا معاً الي العمارة ..

بسرعة ذهبت الي باب الشقة وسمعت صوت الحج رجب من وراء الباب ..

فتحت الباب : "حج رجب في حد معاك ؟؟"

في دهشة .. وبملل وشك رد علي :" تاني ؟؟ .. يا بشمهندس أنا وحدي قصادك أهو .. مالك بس ؟"

نظرت علي السلم في الأسفل ...لا أحد ..

"أصل أنا شفت الراجل ده ماشي وراك وإنت رايح الصلاة و كمان وإنت راجع "..

الحج رجب نظر إلي نظرة لم تشعرني بالإرتياح ..

كأني مسطول أو مشكوك في قوايا العقلية ..

ولكنه رد بهدوء :" تصبح علي خير يا بشمهندس " ..

وأكمل الصعود علي السلم وهو يكح كحه شديدة ...

قبل أن أقفل باب الشقة لمحت ظل لشخص ..

نظرت من العين السحرية .. وجدته !!

هو ... ينظر لباب شقتي بثبات ... وبيبتسم ..

إقترب بوجهه جدًا من العين السحرية مباشرة ..

يعلم أني أراقبه من وراء الباب !! ...

قلبي سيتجمد من الرعب ..

شهقت و أبتعدت عن الباب وأنا أكتم صوتي ..

ببطء أعدت النظر من جديد .. لا يزال ينظر إلي بثبات ..

وكأنه كان ينتظر أن أعاود النظر ..

إبتعد إلي الخلف..

وبدأ الصعود وراء الحج رجب !.

كان رجب قد وصل إلي باب شقته وسمعت صوت الباب يغلق .. قبل أن يلحق به غريب الأطوار ..

سأطلب الأمن .. لابد من تدخلهم فوراً ...

أمسكت هاتفي لأتصل بالأمن .. رد (إبراهيم) المسئول عن أمن المربع بصوت ناعس ..

حكيت له بسرعة الموقف .. وأخبرني بقدومه حالاً ...

مكثت أراقب السلم من خلف باب شقتي ..

نور السلم أضاء من جديد .. وفي ثوان وجدت إبراهيم أمام الباب ومعه 2 من أمن المنطقة ..

فتحت الباب .. وأشرت إلي فوق وأنا أقول :" إبراهيم .. الراجل طلع فوق ورا حج رجب ولسه ما نزلش أنا متأكد" ..

صعد الثلاثة يمشطون العمارة بحثاً .. ربع ساعة كاملة حتي وصلوا سطح العمارة .. وعادوا .. " مفيش حد في العمارة يا بشمهندس .. إنت متأكد ؟؟"

كيف ؟؟ ... هل نزل ولم أراه ؟

حتي يطمئنني إبراهيم قال :" عموماً إحنا في المربع طول الليل ما شفناش حد غريب .. ولو في حاجه تاني يا بشمهندس إتصل عليا و هنكون قريبين "..

ونزلوا ..

دخلت إلي سريري ... لن أنام من التفكير ...

بعد ساعتين سمعت صوت الصريخ قادماً من فوق ..

وهاتفي يرن ... رددت بسرعة لأسمع صوت زوجة الحج رجب منهاره :" إلحقني يا بشمهندس .. رجب مش بيصحي ومش بيرد عليا " !!

وقبل أن تكمل كلامها كنت أنا منطلقاً عبر باب شقتي مهرولاً علي السلم إلي فوق .. لكن توقفت فجأة ...

كان الحج رجب وذلك الغريب يهبطان سوياً السلم وينظرون لي ..

مروا من جنبي ...

الحج رجب ينظر إلي متجهما .. غير مرتاح

الغريب ينظر وهو يهز رأسه نظرة فهمت معناها .. "أنت التالي" ..

أكملوا النزول وأنا ثابت في مكاني دون فهم ..

"إيه الجنان ده بقي ؟؟"

قلتها متعجباً ...

ثم سمعت زوجته من فوق تنده علي وهي تبكي ..

تابعت الصعود بسرعة وأنا أسألها حين رأيتها :" هو ايه الي بيحصل ده ؟؟"

ردت وهي منهاره :" والله مش عارفه .. بصحيه مش بيرد عليا.."

"مين دا الي مش بيرد ؟؟؟"

"بقولك رجب مش بيرد" ..

سبقتني الي داخل الشقة وأنا خلفها ..

لأجد الحج رجب نائم علي الكنبه نومة مفارق للحياة !!!

شهوة
الانعكاس

هل تعكس المرايات "صورتنا" فقط ؟
هل تعكس حقيقتنا ؟؟ هل تعكس خفايانا ؟

هل من الممكن أن تعكس شيء أعمق ؟...

هل من الممكن أن تعكس مخاوفنا وجنوننا؟

أسئلة كثيرة صارت تدور في رأسي كل ما تذكرت قصة دعاء...

الحكاية التي مر عليها 15 عاما ، وإلي اليوم تشغل بالي بتفاصيلها و الحديث الذي دار بيني وبينها ..

مع شغف لا يطاق لمعرفة ما انتهت عليه هذه القصة ..

أنا د. ماجد عبد الكريم، طبيب أمراض نفسية.
وفي يوم من ايام صيف 2010، دخلت دعاء الي العيادة...

بنت في الـ 18 من عمرها..

هادية، حساسة، ملامحها فيها براءة...

كانت قادمه مع أبيها وأمها... وكلهم قلقانين.

الأب تكلم أولا : " دعاء بقالها فترة مش طبيعية... نوبات خوف... توتر... ساعات فقدان ذاكرة .. وكل ده بدأ لما نقلنا البيت الجديد "

الأم أكملت " أنا حاسة إنها محسودة ... أو في حاجة مش طبيعية في البيت .. اتحسدنا علشان بيت جديد "

طلبت منهم أن يتركوني لنتحدث وحدنا.
وبمجرد ما ان انغلق الباب...

جلست أمام دعاء دون ان ترفع عينيها صوبي ..
حاولت ألطف معها الكلام ، أبدأ بحديث عادي ...

لكن فجأة بكت وغطت وجهها وقالت بصوت مخنوق:

"ساعدني يا دكتور... أرجوك"

أزحت يديها بهدوء من على وجهها... وبدأت تحكي ، وكل جسمها متوترا، وأظافرها مغروزة في ساعدها من القلق.

قالت: "البداية كانت مع المراية اللي في أوضتي... الغرفة كلها جديدة، والإضاءة قوية... والدولاب نصه مراية كاملة. أول مرة في حياتي أشوف نفسي بالوضوح ده".

"كنت أقف أمام المرآة بالساعات... ليس للتجمّل... لكن للتأمل"
تقول: " كنت باشوف شكلي حلو... بس مش حلو بس... كنت بحس بنشوة غريبة. ببدأ أبص لتفاصيل جسمي أكتر من الطبيعي... ساعات أبص على عيوني... وأحس إن النظرة مش نظرتي أنا".

لازالت عيونها علي وشك البكاء وهي بتكمل حديثها : " في لحظة... حسيت إن في حد تاني في الأوضة. مش مجرد خيال... حضور حقيقي. كل مرة أقف قدامها كتير... أتوتّر، مش علشان بعمل حاجة غلط... لكن لأني حاسة إن في حد شايفني"

"بدأت أتجنب غرفتي... أقعد وسط أهلي أطول وقت ممكن .. لكن الغرفة كانت "بتنده عليا"

كل ما أحاول أبعد... إحساس غريب يجبرني أرجع".
وأرجع أقف امام المرآة من تاني

"وفي ليلة... دخلت الأوضة وكنت ناوية أدخل الي السرير من غير ما أبصلها... لكن أول ما دخلت لقيت المراية مستنّياني".

وقفت قدامها
اتجمدت
تقول: "أنا كنت واقفة... بس اللي في المراية مكانتش ابتسامتي... ولا نظرتي. عيوني فيها لمعان... مش لمعاني.... لا ده لمعان شهوة؟ أو جوع؟ مش فاهمة. كنت حاسة إنها مبسوطة... ومتلخبطة. أنا اللي مبسوطة إنها شايفاني؟ ولا انعكاسي هو اللي مبسوط إنه بيبصلي؟ العيون عيوني... والوش وشي... والابتسامة ابتسامتي... بس هل دي فعلاً أنا؟"

"قربت بوشي من المراية... بصيت في عيوني... حسّيت كأن حد جوّا المراية بيبص لجسمي بعيوني أنا... بس مش أنا ... ارتعبت... ولبست هدومي بسرعة ووقفت بعيد"

”وسمعت صوت... صوت واضح جوا دماغي“

”ارجعي... عايز أشوفك“

سكتت
نفسها اتقطع
يديها ترتعشان

أكملت : "لما سمعت الصوت... حسّيت ببروده شديدة طالعة من المراية... بروده بدأت بأطرافي ثم بدأت البروده تزحف حتي عمودي الفقري..."

سكتت لترتب كلامها و أكملت :

"يا دكتور... أنا طول عمري ببص في المرايات... بس عمري ما شفت في عيوني *النظرة دي ..* غير بعد ما دخلنا البيت الجديد"

سكتت .. فقمت من مكاني وجلبت لها كوب ماء كي تشرب .. ولكي تهدأ قليلاً ..

ثم بدأت انا الكلام بهدوء ..

" دعاء .. المرايات من قديم الازل و فكرة ان الانسان يشوف نفسه و ينبهر بجماله لها اساطير كتير .. تعرفي اسطورة نرسيس؟؟ دي اسطورة يونانيه قديمه لشاب اسمه نرسيس و كان وسيم بشكل لا يصدق .. وكان مغرور وكان محبوب و معشوق البنات بس هو لا.. مش فارق معاه اي حد .. المهم في يوم وهو بيتمشي في الغابه شاف بركة ماء صافيه .. ركع علشان يشرب فشاف انعكاس وجهه علي سطح المية .. ومش عارف بقي هل اول مره يشوف وجهه ولا الماء كان فيه حاجه .. الاسطورة ما وضحتش .. بس المهم انه انبهر بجمال صورته وعشقها لدرجه انه مش قادر يبعد عينه عن صورته ... تخيلي ... لحد ما مات .. مات ازاى بقي ؟ الاسطورة ما قالتش .. بس اتقال انه اتحول لزهرة النرسيس .. النرجس بلغتنا .. عرفتي بقي منين ظهر لفظ النرجسيه ؟"

كانت دعاء تستمع للقصه بتركيز شديد و عينيها متسعه ..

كأنها تحاول ربط ما يحدث معاها بقصه نرسيس ..

او وجدت بالفعل الربط !! لأنها بسرعه ردت علي :

" لا لا هو أكيد حصله زي ما حصل معايا .. انا الي فاهمه الي حصل له ايه "

بلعت ريقها من الحماس و اكملت " انا لسه هحكيلك اني اتعودت اتكلم مع نفسي في المرايا و سميت صاحب النظرات المتحرشه ده (سلطان) .. وحاولت اتعود علي وجوده في غرفتي .. لا و كمان بقيت لما احس اني عاوزة أأذي نفسي او اعاند مع أهلي ان انده له بأسمه ... و كان بيحضر .. كنت علي الفور بحس بالبرد الشديد في كل جسمي و نظراتي في المرايا بتتغير في ثواني .. كنت خلاص بعرفه لما يحضر"

"و كان اوقات في الليل و قبل ما انام كان بيحضر من نفسه .. بس كان بيشل جسمي .. مش عارفه اتحرك ولا اصرخ ولا اتكلم .. بيطبق علي صدري و انفاسي وأحس عمودي الفقري تجمد من البرد ويخنقني .. الشلل ده كان ممكن يوصل لربع ساعه .. بعدها يتفك ويحل عني "

نظرت لعيون دعاء وببرود سألتها " طيب ولما انتي كونتي صداقه معاه .. فين المشكله ؟"

سكتت متردده , بدأت تطقطق صوابعها وقالت " لأن حسيت انه بيغتصبني .. مبقيش موضوع اعجاب وبس .. لحظات الشلل لما بدأت استوعب بدأت افهم انها اغتصاب ... ولما واجهته اني فهمت هو بيعمل ايه ... اعترف لي انه ايوة بيغتصبني و اني خلاص هبقي ملكه و مش هيسيبني تاني "

سألتها " بتتكلموا بقي و بيرد عليكي و كده ؟"

ردت " ايوة .. الحوار بينا كله بسمعه في دماغي ... بس حتي صوته مميز وكأنه بيتكلم تحت الميه"

وأكملت " فهمت منه انه مكنش بيقدر يشوفنا لا هو ولا باقي جنسه ولا يعرفوا هيئتنا وان البشر بالنسبه لهم كلنا سواء .. مجرد كائن سائل ملهوش ملامح .. وان الوسيله الوحيده ان يشوفوا فيها ملامحنا هي عن طريق عيوننا احنا .. يتسلل لدماغنا ومنها يشوفنا بعيونا , وان المرايا خلته ينبهر بيا و بجمالي لما شافني بعيوني انا ... وانهم كانوا ساكنين المنطقه و احنا البشر الي دخلاء عليهم منطقتهم ... انا دلوقتي متأكده ان نرسيس ده لما راح الغابة كان دخيل عليهم في منطقتهم و انهم شافوه و انبهروا بجماله و بقي ملكهم زي ما سلطان ما عايزني اكون ملكه "

سكتت وبلعت ريقها .. " بابا وماما ما قدرتش احكيلهم كل التفاصيل دي .. انت كمان مكنتش هحكيلك غير بس ان المرايا سحراني وخلاص .. بس حكاية نرسيس دي خلتني احس ان ممكن تفهمني او تنقذني .. سلطان عايز يسيطر عليا .. يموتني .. معرفش هو عايز ايه "

سكتّ أفكر... ودماغي تلف..
أنا اشتغلت على حالات كتير.. هلاوس، اضطرابات هوية، وسواس...

لكن اللي بتحكيه دعاء كان مختلف..
مش بس طريقة كلامها... ولا التفاصيل ...
لكن الخوف الحقيقي اللي في عينيها. خوف صادق... خوف "شافت حاجة"

قُمت من مكاني... مسكت ريموت التكييف و فصلت التكيف ..
وامسكت بزجاجة ماء لاشرب وابتلع قصتها واحاول ترتيب افكاري

وقلت لها بهدوء مصطنع:

"دعاء... إمتى آخر مرة ظهر فيها؟"

ردت بدون تردد وعينيها مدمعه " حالا لما قمت من مكانك "

توترت و حاولت اظهار تماسكي " اممم وعمل أيه سلطان ؟"

" ظهر في دماغي و حذرني ان احاول الهروب او طلب المساعدة والا هيأذبك ويأذيني "

حتي اللحظة كنت أحاول ان أشخص الموضوع نفسيًا ...هلاوس ... نوم... شلل نوم... اضطراب هوية انفصامي... أي حاجة ذات منطق ...

بينما أتفحص ملامحها وجدتها تنظر لي بإبتسامه ثقه وسخريه وتقول : " أمال انت حسيت ان الجو بقي برد مره واحده يعني يا دكتور ؟ وفصلت التكييف ليه !! .. مع ان احنا في الصيف ومنتصف اغسطس "

غمرني الاندهاش .. نعم بالفعل انا فصلت التكيف لأني شعرت ببروده في أطرافي ..

سألتها بحذر : " سلطان ؟"

ضحكت .."ما تحاولش يا دكتور .. دعاء سحرتني بجمالها .. وهتفضل ملكي "

بهدوء سألته : " انت اسمك الحقيقي ايه ؟"

بدون تردد أجابت – او اجاب – " سلطار"

نظرت لها بثبات بينما خفضت هي رأسها مع تثبيت نظرات عيونها الي عيوني في تحد وهي تبتسم اخبث ابتسامه رأيتها في حياتي فقلت انا : " امممم سلطار وليس سلطان "

هنا وقفت .. وجلست علي مكتبي مسترخيا و بقوة قلت لها " شوفي يا دعاء .. انا هكلمك بصراحه .. انتي عندك وسواس جامد يا بنتي .. ومحتاجه نعمل فحوصات علي الدماغ .. كل الي انتي فيه ده ضلالات .. ولازم تبقي فاهمه ده علشان العلاج يمشي صح .. تبقي فاهمه حالتك .. حتي لو بشكل مبدأي .. ممكن تكوني مش مقتنعه ان المشكله فيكي .. ومصدقه روايتك دي .. بس اي كان .. هنمشي في الاجراءات العلاجيه و هبلغ بابا و ماما ان العلاج يكون في اقرب وقت "

انتهيت من كلامي بينما هي هادئة تماما وتستمع إلي دون اي رد فعل ..

لكن تغيرت الابتسامه ..

الي ابتسامه حسره هذه المره ..

ابتسامه شخص خسر اخر أمل .. دون رد

سألتها " عندك اي تعليق ؟"

لا رد ..وإن هزت كتفها بمعني – مش مهم – فضغطت الجرس للتمريض طلبا لدخول الأهل .

شرحت شكوكي للأب والذي كان مستعد للاستماع والفهم ..

الام كانت متوترة جدًا لكن لا زالت تصر ان بنتها محسوده ...

الاب وافقني ان نبدأ الفحوصات ..

طلبت منه عمل الاشعه و الفحوصات اللازمه في اقرب وقت علي أن يعود لكي نبدأ رحلة العلاج المناسبه .. كل هذا بينما دعاء مثبته نظرها صوب الارض ودون إهتمام للكلام الدائر حولها .. كأنه لا يعنيها في شيء .

وقف الاب معلن نهاية الكشف وسلم عليا ..

الام حضنت إبنتها و قبل أن ينصرفوا من العيادة ..

ناديت عليها " دعاء " ..

قمت من مكاني وذهبت لها مادد يدي كي أسلم عليها ...

كانت يديها كقطعة ثلج !!

كأنها كانت في الفريزر مثلا !! ..

نظرت في عينيها ..

ولن أنسي نظرات عيونها لي بينما تسحب يدها منصرفه ..

انصرفت...

ولم تعد من جديد قط ..

ومنذ ذلك اليوم، لم أعد أستطيع تفسير سبب البرودة التي شعرت بها، ولا سبب فصلي للتكييف في ذروة حر أغسطس.
لكن ما لم أجرؤ على الاعتراف به، حتى مع نفسي، أنني بدأت أتجنب

الوقوف أمام المرايات..
ليس خوفًا.
بل لأنني في كل مرة أرفع عيني صدفة، أشعر بالبرودة ذاتها تزحف إلى أطرافي شخصيا .

سينما
مايكرو

في وسط الحيّ الشعبي الذي أسكنه، هناك بقعة صامتة أشبه بنقطةٍ محذوفةٍ من الجملة...

مبنى رمادي بواجهةٍ تشقّق طلاءُها، وعلى الإسمنت طبقاتٌ من الغبار كأن الزمن نفسه توقّف هنا.

هذه هي سِينما ماكرو.

لا أحد يتكلم عنها، مهجورة منذ سنين طويلة لا أحد يلتفت إليها.

تمرّ بجانبها فتشعر بأن عينيك انزلقتا من فوقها دون قصد، كما لو أن الذاكرة تدربت طويلًا على محوها.

البوابة الرئيسية مسدودة بالطوب الأحمر، والباب الجانبي الخشبي للعاملين مكبّل بسلسلةٍ صدئةٍ وقفلٍ عتيق.

على الواجهة بوسترٌ باهت لفيلم قديم لفؤاد المهندس، يبتسم ابتسامةً كادت تسقط من الورق.

وتحت النافذة الصغيرة يافطة تقول: "الأرضُ ملكُ السيد/ حامد إبراهيم — وليست للبيع."

كان أطفال الحي، خمسة عشر طفلا تقريبًا، بين الثامنة والرابعة عشرة.

ضجيجهم كان يملأ الليل لسنوات.

ثم جاءت الشرطة ذات ليلة لفض الازعاج بعد شكاوي الاهالي ، وبعدها...

لم يبق شيء.

لم يختف الأطفال من الحي، بل من الليل نفسه.

صاروا يتبخرون بعد منتصف الليل ويعودون عند الشروق بوجوهٍ هادئة وضاحكة.

وحين تسألهم: "*كنتم فين؟*"

يبتسمون ويغيرون الموضوع.

لا أكاذيب... بل صمت متواطئ.

أنا لستُ غريبًا عن الحي، لكنني أيضًا لستُ منخرطًا فيه.

إسمي ليس مهمًا.

أعمل في مكانٍ بعيد، وأعود مساءً لأغفو على ضجيج السوق ورائحة الخبز والعرق والسجائر.

لكنّ سِنيما ماكرو بدأت تشغلُ مكانًا في ذهني يتّسع كل ليلة.

في مساء يوم شتوي بارد قررت مراقبة الباب الخشبي.

تسللتُ إلى زاويةٍ عند مخزن للكراتين، وأطفأت هاتفي.

دقّت الساعة الثانية عشرة.

الشارعُ يتثاءب،

مصابيح ضعيفة تتناوبُ الاحتضار.

ثم رأيتهم... خمسة، ثم سبعة، ثم اكتملوا.

لم يمشوا معًا بل تتابعوا كأنهم يتقطرون من حارةٍ خلفية.

وقف الأكبر بينهم عند الباب، ولم أرَ مفتاحًا في يده ولا سمعتُ صوت السلسلة الصدئة.

ومع ذلك، إنفتح البابُ كما ينفتح فمُ شخصٍ نائم.

دخلوا واحدًا واحدًا، واختفى آخرهم في الظلام.

حين وصلتُ أنا، كانت السنيما قد إبتلعتهم جميعًا داخلها.

بخفه ذهبت خلفهم .. هل أغلقوا الباب خلفهم ؟

أسندت كتفي إلى الباب ودفعته.

لم يتحرك.

ضغطت بأصابعي على الفاصل، فوجدته يستجيب، وكأنّ إعتراضه لم يكن إلا أدبوًا.

إنفتح على عتمةٍ برائحة عطنه.

وغبار، و رطوبة، ثمة فأر فر هاربًا بجوار قدمي ..

ثم لا صوت.

حتى دقات قلبي بدت وكأنها تتردد في مكانٍ آخر.

تلمستُ الحائط، مشيت خطوة، اثنتين، ثلاثًا.

لا أثر لأحد. لا همسات، لا حفيف.

واصلتُ السير ببطء، والظلام يتكثّف حولي كلما ابتعدتُ عن الباب.

بدا لي أنني أمشي في مكانٍ أكبر من حجمه، كأن الجدران تنسحب إلى الخلف، كأن القاعة تتسع دون منطق.

توقعتُ أن أسمع ضحكة طفل، وقع قدم، همسة... لكن لم يكن هناك سوى الصمت.

مددت يدي إلى جيبي، أخرجتُ هاتفي لأشعل الضوء.

الشاشة لم تستجب.

أعدت المحاولة.

لا شيء.

كأن البطارية ماتت مع أول خطوة في الداخل.

إرتجفت يدي، وقررت العودة.

إستدرت، فلم أجد الباب.

فقط جدار من الطوب الاحمر يسد الطريق للخروج.

وضعت كفي عليه، ملمسه بارد ورطب.

فجأةً، لمع في آخر القاعة خط ضوء رفيع.

لم يكن ضوءًا طبيعيًا، بل خيطًا أبيض متذبذبًا، كوميض بروجكتور قديم. انجذبت إليه رغم خوفي، حتى إنفتح أمامي فضاء قاعة العرض ذات مقاعد خشبية مصطفة في إنتظامٍ مطيع، وغبارٌ يلمع كذرات زجاج في الهواء.

الشاشة الضخمة عالقة على الجدار، لكنها لم تكن بيضاء... بل رمادية حيّة، تتحرك فوقها ظلال غير واضحة.

جلستُ خلف العمود الأخير، متشبثًا بالظلام، وعيناي تحدقان.

ظهر أول مشهد.. زقاق ضيق في الحي، نفس الزقاق الذي أمرّ به كل يوم، ثم لقطة لبائع الخبز يمد رغيفًا لشخصٍ ما خارج الكادر.

ثم تغيرت الصورة لوجوه سكان الحي المعتاده في الصباح , كأن الفيلم يحكي قصة الحي اليوميه.

قلبي انقبض.

الصورة تلاشت، وحل محلها مشهد آخر.. أنا جالس في مقعد مظلم، عيناي فارغتان، كأن الشاشة تعكس اللحظة التي أعيشها الآن.

أو ترحب بقدومي ؟!! ..

شهقت، وكأن الهواء إنقطع فجأة.

إلتفت بعيني الي الصفوف الخشبية الأولي فوجدت الأطفال يجلسون أمام الشاشه في صمت مطلق وأعينهم مثبته علي الشاشة وأفواه منفرجة مذهولة .. لم يلتفتوا إلي و لا يبدو أنهم شعروا بوجودي أصلًا. إقتربت منهم أكثر.. ثم شعرت بعدم الإرتياح.

الفيلم لا يزال يعرض حياة الحي و بائع السمك "عادل شباره" وهو يضحك ويغمز لجارتنا " ياسمين " و هي تبتسم له .

فقررت الجلوس علي أقرب كرسي وأتابع القصة.

في تلك اللحظه سمعت الهمس .. لم يأت من الأطفال ولا من الفيلم المعروض .. بل من كرسي في الصفوف الخلفيه إذ يقول " ما تقعدش .. لو قعدت مش هتقوم .. إمشي"

دققت النظر لمصدر الصوت .. كان هناك ظلًا جالسًا لشخص لم ألحظه من قبل ..

ولكن في قرارة نفسي تيقنت أن الجالس هو " حامد ابراهيم " بنفسه .. لم أعرفه يومًا ولا أعرف حتي شكله أو صوته .. لكن هناك رسالة قوية إنبعثت داخل عقلي أنه هو.

بصوت هامس سألته " هو في إيه ؟ إيه بيحصل للعيال دي ؟ و مين الي بيعرض الفيلم ده ؟"

رد بصوت واطي " السنيما دى لعنة , أنا غلطان إني إشتريت وقبلت منها الصفقه دي .. وعدتني بالخلود مقابل إنها تشتري المكان , بس مقالتليش الخلود ده هيبقي شكله إيه " ..

سكت قليلا و أكمل " إوعي تقعد .. لو قعدت مش هتقوم .. العيال دي بتخرج كل يوم من هنا ناسيين إنهم كانوا هنا اصلًا .. بس المكان في الحقيقة بيسيطر عليهم واحد واحد .. الله أعلم ليه "

لاحظت أن صوته فيه حزن وهو يكمل " كتير حاولت أحذرهم قبل كده ومسمعوش كلامي .. كانت بتعرض لهم حياة الناس في الحي كأنها بتتلصص عليهم .. بتكذب .. تحكي لهم فضائح و أسرار لسكان الحارة و هي بتكذب .. لا تصدقها .. عيزاك تقعد .. لما تقعد هتسحبك .. وقتها إنت مش هترجع إنت تاني..."

كانت الصورة المعروضة حاليًا لعادل شباره و هو يتسلل الي داخل البيت خلف ياسمين ... الأطفال متسمرين أمام الشاشة .. بدون حركة .. أنا بالفعل أريد معرفة ما سيحدث .

" إفتكر إني حذرتك " ..

إلتفت للظل لكن وجدته قد إنصرف .. إختفي .

كانت الشاشة تزداد بريقًا، والمشاهد المعروضة تتحول من يوميات بريئة إلى أسرار مظلمة.

لم يكن ما يُعرض مجرد لقطات، بل فضائح وخطايا مخفية... خيانة، حقد، حسد، نزوات صغيرة لا يعلمها أحد.

شعرت أن السينما لا تكتفي بعرض الحياة... بل تلتقط قبحها لتقدمه للأطفال كوجبة مسمومة.

إقتربت أكثر من المقاعد. الأطفال لم يرمشوا، إبتسامات باهتة بدأت ترتسم على وجوههم، كأنهم يتغذون على ما يشاهدون.

فجأة تغير المشهد .. وجدت وجهي أنا و أنا خارج الي عملي في الصباح .. أغلقت باب الشقه و نزلت السلم .. ثم إنفتح باب الشقة المواجهة لبيتي وخرج منها جاري .. رجل في الخمسينات من العمر.. طرق الباب بخفة و فتحت أمي له الباب لينزلق بسرعة إلي الداخل..

شعرت بغضب حقيقي ...

إرتجفت قدماي.

حاولت النهوض لكن الكرسي الذي جلستُ عليه بدا أثقل من الحديد. أدركتُ متأخرًا أني وقعت في الفخ.

عاد الهمس، أقرب هذه المرة، من داخل أذني : *"قلتلك ما تقعدش"*

إلتفت حولي من جديد .. ظل " حامد ابراهيم " كان قريبا .. عاد ليقول " لسه قدامك فرصة تهرب .. لسه ما سحبتش وعيك بالكامل"

حاولت أن أرفع جسدي، لكن الشاشة إزدادت سطوعًا.

كأنها غاضبة ...

عرضت مشاهد لم أعرفها .. لقطات من مستقبلي.

وجهي شاحب، جسدي يذبل، وأنا جالس بين الأطفال الذين لم يكبروا يومًا.

عقلي بدأ يتهاوي .. ينهار .. ينسحب وعيي وكأن المكان يمتصه ببطء .. صرخت و أنا أرفع جسدي بكل ما أملك من قوة لكي أنهض من علي الكرسي .. الكرسي الذي بدا وكأنه يتمسك بي بمخالب حديدية.

جريتُ عبر المقاعد في إتجاه الباب الخشبي , الان صرت أراه , دفعت الباب بكتفي، فإذا به ينفتح على الشارع المظلم.

إرتطمت بالأرض خارجًا، لهثتُ وأنا ألتفت ورائي... الباب مغلق، السلسلة مشدودة، لا أثر لأي شيء .. هرعت الي البيت مسرعًا وأغلقت الباب خلفي و ألقيت بجسدي علي أقرب كرسي قبل أن أتهاوي تمامًا و أفقد الوعي.

مع شروق الشمس، إستعدت وعيي , المفاجأة أني لازلت علي الكرسي بداخل السنيما ... المكان فارغ تمامًا من أي بشر ... ضوء الشمس يدخل من كل مكان و الصالة واضحة تمامًا .

رائحة الرطوبة .. صوت العصافير التي وجدت المكان آمن تمامًا لبناء الأعشاش ..

لا أثر لأي أحد ..هل كانت حالة هيستريا ؟؟

هل كل ما مررت به ليلًا مجرد أوهام ؟

نهضت من الكرسي وأنا مذهول مارًا بين الصفوف في إتجاه الباب الخشبي ..

الباب الذي تفاجئت أنه كان مفتوحًا ..

خرجت في ضوء الشمس .. "عادل شباره " يجلس علي الناصية أمام أسماكه ..

تابعت السير لأجد في طريقي "ياسمين" متجهة إلي عادل مبكرًا لشراء السمك !!

وقفت متشككًا أنظر إليهم .. "عادل " يضحك ويغمز لياسمين في مجون .. هي تبتسم له و تهمس إليه بشيء ما غير مسموع .

هل قامت السنيما حقًا بفضحهم ونشر أسرارهم ؟؟

أم هي التي كتبت لهم هذا المصير وهذا السيناريو وهم يقومون بأدوارهم دون إراده؟

وبينما أراقبهم، مر مصطفى... أصغر أطفال المجموعة.

إبتسم في وجهي وقال" *هتيجي تلعب معانا بكرة تاني؟*"

تجمدت.

نظرت إلى إنعكاسي في زجاج المحل المقابل... أنا مجرد طفل صغير، لا يتجاوز العاشرة.

كوفيد19

هل حقيقة أن حواسّ الإنسان محدودة؟

وهل كونها محدودة رحمة من الخالق كي تخفي عنا ما لا يجب أن نعرفه ..

وما لا يحتمله عقلنا؟

رحمة تسمح لنا أن نواصل حياتنا بشكلٍ صحيّ وعقلاني ...

وأن نتجنب السقوط في الجنون.

لماذا تستطيع الكلاب أن ترى ما لا يراه الإنسان؟

ولماذا تشم بعض الحيوانات ما نعجز نحن عن إدراكه؟

هل تشعر الطيور بالزلازل قبل وقوعها؟

هل تري القطط في الظلام؟

وهل يصيح الديك لأنه يري ما لا نراه نحن؟

لم أكن أؤمن يومًا بأن حواس الإنسان ناقصة ...

كنت أراها كما هي: أدوات عملية، تكفي للعيش، لا أكثر ولا أقل ...

الآن فقط ... أفهم أن نقصها كان رحمة ...

بدأت المشكلة بعد إصابتي بالنسخة الأولي من فيروس كوفيد-19.

نعم، كورونا كما عرفناها شعبيًا؛ ذلك الفيروس الذي ظهر عام 2019، منطلقًا من الصين ليجتاح الكوكب بأكمله.

أُصبت به شخصيًا عام 2020، وهناك بدأت قصتي.

كانت الأعراض في بدايتها طبيعية .. إرتفاع في درجة الحرارة، صداع إستمر لساعات، وشعور غامض بخللٍ يجتاح جسدي.

أعراضٌ مرّ بها معظم المصابين.

ثم فقدت حاسة الشم... ليومٍ واحد فقط، رغم أن الشائع كان فقدانها لعدة أيام أو حتى أسابيع.

لكن المشكلة الحقيقية لم تبدأ إلا مع عودة حاسة الشم.

عادت، نعم... ولكن بشكلٍ مشوّه.

لم أعد أحتمل روائح الفاكهة، أو العطور، أو البخور. صارت جميعها روائح شنيعة تُصيبني بالغثيان.

إستمر هذا الإضطراب قرابة شهر، ثم بدأ يتلاشى تدريجيًا، مما أوحى لي أنني في طريق التعافي التام.

إلى أن لاحظت تغيرًا جديدًا.

صارت حاسة الشم لدي قوية على نحو غير مسبوق. أنا، الذي كنت أعاني قبل الكوفيد من ضعفٍ ملحوظ فيها، أصبحت أشم عرق الناس من مسافات، عطورهم، أنفاسهم، حتى إن كان مصدر الرائحة خافتًا بالكاد يُلحظ.

بدأت أعاني بشدة، خصوصًا مع الروائح الكريهة، وظهرت بوادر أزمة حقيقية، لا سيما في الصيف.

صرت أتجنب الزحام، والمواصلات العامة، وكل مكان يجتمع فيه البشر.

خليط الروائح هناك كان أشبه بروائح صاعدة من الجحيم.

لم يعد الإشمئزاز محتملًا.

ثم... لم أعد أطيق حتى رائحة عرقي الشخصية.

كنت أهرع للإستحمام فور بدء التعرق، كأن جسدي خانني.

كل ما سبق لم يكن سوى تمهيد لبداية المرحلة الحقيقية.

في تلك الفترة، كنت قد أشتريت سيارة حديثة لافتة للنظر بإمكاناتها وشكلها الرياضي.

وفي أحد الأيام، مررت لإصطحاب صديقٍ لي لقضاء أمرٍ ما.

بمجرد أن ركب السيارة... شممت الرائحة.

لا، لم تكن رائحة جسده كما قد تتخيل.

كانت رائحة نفّاذة، خانقة.

هل تعرف رائحة إحتراق البلاستيك؟ تخيّل محاولة إطفائها بالبول.

ذلك الخليط المقرف كان أقرب وصف لما شممته.

كدت أفرغ معدتي من هولها.

لاحظ صديقي إمتقاع وجهي، فسأل بقلق:-

"مالك؟ أزمة قلبية ولا إيه؟"

سألته، وأنا أكاد أختنق:-

"إنت مش شامم الريحة دي؟"

نظر إليّ بدهشة، حاول أن يشم، ثم قال:-

"مفيش حاجة ! بالعكس... السيارة رائحتها جديدة"

ثم إبتسم وأضاف:-

"دي بكام يا إبراهيم؟"

لم أُجب... وإن إزدادت الرائحة عفونة بعد جملته الأخيرة ..

كنت منشغلًا بمحاولة فهم كينونة تلك الرائحة، رغم أن الصورة لم تكن قد إكتملت بعد.

الغريب... أنه بمجرد نزوله من السيارة، بدأت الرائحة تختفي تدريجيًا.

كان ذلك مرعبًا.

ومغريًا.

مع التركيز، بدأت أستوعب الحقيقة العجيبة .. لم أكن أشم روائح عادية... بل روائح المشاعر.

جسد الإنسان خليط كيميائي من إفرازات هرمونية وغددية.

للكذب رائحة، وللغضب رائحة، وللخوف أيضًا.

ألهذا السبب يشم الكلب رائحة الخوف؟

لم أتخيل، كإنسان محدود الحواس، أن للمشاعر رائحة.

هل صرت أشم النفوس؟

كارثة.

جهلنا بما في النفوس رحمة من اللّه.

ضحكت من الفكرة .. هل صرت أشم مثل الكلاب؟ بدت سخيفة... لكنها منطقية حدّ الرعب.

بعض الناس تفوح منهم رائحة عفن حاد، رغم نظافتهم.
بعضهم روائحهم نفاذة، حارقة، كأنها تحذير.
وبعضهم...
قلة قليلة...

كانت رائحتهم محايدة.
باهتة.
شبه معدومة.

إرتحت لهم دون سبب.

أصبحت أميز كذب زملائي في العمل، وأشم غدر بائع الخضار وهو يدس الفاسد بين الجيد. لم أره، لكنني شممته.

كنت أخرج القطع الفاسدة من الميزان مبتسمًا بثقة، أشم إحراجه، ثم غضبه حين تركت مشترياتي وأنصرفت كإعتراض مني علي خيانته ..

شعرت بمتعةٍ خبيثة.

كل إنسان صار يحمل لافتته فوق جلده، وأنا وحدي أقرأها.

الأسوأ...
أنني لم أستطع إيقاف ذلك.

قوة خارقة تكشف نوايا البشر.

ثم بدأت أتدرب.

أُخفي قدرتي وأتلذذ بالتلاعب.

إلى أن تغيّر كل شيء.

ظهرت روائح جديدة... غريبة... بلا تفسير.

روائح عطرية خفيفة، لكنها كريهة على نحوٍ غير محتمل.

تظهر وتختفي.

أحيانًا وأنا وحدي، وأحيانًا في عملي، في سيارتي، بل حتى أثناء نومي.

الأغرب... أنها كانت تختفي فور إستعاذتي بالله.

هنا بدأ الرعب.

أعدت التجربة عمدًا. تركت الروائح العطرية تحيط بي...

ثم إستعذت. فهربت.

لم يكن الشك دافعي.

كان الغرور.

أردت أن أعرف: هل ما أشمه إنعكاس لمشاعر البشر؟

أم روائح كائنات لم أُخلق لأدركها؟

في إحدى الليالي، حين ملأت الروائح العطرية الغرفة، لم أستعذ.

جلست على السرير، أغمضت عيني، وتنفست ببطء.

لم أنطق.

لكن داخليًا... كنت أتحدّى.

إن كنتم موجودين...

إن كانت هذه رائحتكم....

إقتربوا.

لم يحدث شيء.

وهذا ما خدعني.

ثم... صار الهواء أثقل... مكتظًا... كأن الغرفة امتلأت بأجساد لا أراها.

تضاعفت الرائحة... لم تعد واحدة، بل طبقات تلتف حولي.

شعرت بها تمر قرب وجهي، خلف رأسي، عند عنقي.

لم أعد أشمها بأنفي فقط.

كانت تلمسني.

حاولت أن أستعيذ.

خرجت الكلمات ضعيفة... لا تخصّني.

لم تختفِ الرائحة.

بل إقتربت.

لم أكن أنا الذي يشمّهم.

هم... كانوا يشمّونني.

ومنذ تلك الليلة، لم تفارقني الروائح.

صارت أقرب من أي تصور.

أشعر بلمساتهم العطرية القذرة على جسدي.

صارت الرائحة جزءًا مني.

الآن... لا بد من تدخل من يفهم هذه الأمور.

سأذهب إلى ساحر في إحدى قرى الجيزة.

وهناك... بدأت النهاية ... دخلت عليه وأنا أحمل داخلي خوفًا لا يشبه الخوف، بل شيئًا أقرب إلى الاشمئزاز من نفسي.

كان رجلًا في منتصف الخمسينيات، يرتدي جلبابًا واسعًا، وجهه ساكن على نحوٍ مصطنع، وعيناه ثابتتان أكثر مما ينبغي. المظهر يوحي بالثقة، لكن أنفي قال غير ذلك.

قبل أن يتكلم، شممت.

كوكتيل كثيف من الروائح ... كذب قديم، جشع، حقد، وخيانة لا تزال دافئة.

لم تكن روائح طارئة، بل مستقرة... كأنها جزء من تكوينه.

قلت له، محاولًا ترتيب الكلمات:-

"حاسس إن في حاجة معايا... حاجة محيطة بيا"

إبتسم... إبتسامة شخص سمع القصة قبل أن تُروى.

قال بثقة محفوظة:- "واضح إن في مسّ".

لم أجادل... لم أشرح... كنت أريد الخلاص، أيًّا كان ثمنه.

طلب المال... ثم بدأ يتمتم بطلاسم غير مفهومة.

ومع أول جملة خرجت من فمه، إقتحم المكان رائحة جديدة.

رائحة قيء طازج، لزجة، لا تنتمي لأي شيء أعرفه.

تقلصت معدتي بعنف.

حاولت التماسك، لكن الرائحة كانت أقوى من أي إرادة.

إنحنيت، وأفرغت معدتي على الأرض.

نظر إليّ الساحر برضا.

كأن هذه اللحظة كانت المطلوبة.

قال:- "كده... بدأ جسمك الخلاص"

لم أتخلص من شيء.

كاذب أشر ..

بعد نصف ساعة من الطقوس، أعلن إنتصاره.

قال إنني أصبحت في أمان، وأن ما حدث دليل على خروج الأذى.

غادرت المكان، لكن الرائحة لم تغادر.

في البداية كانت خافتة، كأنها ذكرى... ثم بدأت تتغلغل.

في ملابسي..

في عرقي..

في جلدي..

في شعري..

عشرة أيام مرّت كأنها عقوبة.

الرائحة لا تفارقني، تشتدّ كل صباح، وتنام معي كل ليلة.

فقدت تركيزي، انهارت تقاريري، ثم توقفت عن الذهاب إلى العمل قبل أن يقرروا هم الاستغناء عني.

انعزلت.

أغلقت باب الغرفة.

لم أعد أخرج إلا للإستحمام أو قضاء حاجتي، الطعام صار مستحيلًا.

رحلت زوجتي بالأطفال.

لم تشرح. لم تحتج.

كنت أعلم مسبقا أنها سترحل ..

شممت رائحة غضبها ونواياها قبل قرارها ..

هل لعنني الرجل؟ هل إستدعى شيئًا لم يكن يجب إستدعاؤه؟

أم أنني إقتربت أكثر مما ينبغي من بابٍ لا يُفتح؟

بدأ جسدي يهرب من الرائحة بالتثاؤب المستمر، ثم بالإرهاق، ثم بالغياب.

ساعات لا أعلم هل كنت نائمًا أم غائبًا.

حين نظرت في المرآة، لم أعرف الوجه.

لون أغمق.

عينان جاحظتان.

فك بارز.

شعر طويل غير مهذب.

هل هذا هو معنى الجنون؟

وقفت أمام المرآة طويلًا.

نظراتي .. نظرات شفقة علي حالي ...ولكن ؟

متي بدأ وجهي يحترق بهذا الشكل ؟؟

أو يتشوه !! ...

تغيير حدث في البداية بشكل غير ملحوظ .. ثم بدأ في الإزدياد شيئا فشيئا ..

يبدو أن ما إستحوذ علي شيء أكبر مما ظننت ...

لابد أن أهرب إلي مكان بعيد ... وأن أجد وسيلة للعلاج .. أو وضع نهاية لمأساتي

تناسخ

" ربع ساعة وهتدخلي العمليات يا إيمان .. إقرأي الكرسي وتوكلي علي اللّه.. وربنا الحافظ"

كان هذا كلام إبراهيم وهو ممسك بيد زوجته إيمان ومتجنب النظر في عينيها كي لا تري الخوف فيه ... هو بالأساس مهزوز جدًا و مرتعب ..

إيمان مصابة بورم في المخ في مكان حساس جدًا و إحتمالات فشل العملية كبيرة

والفشل معناها الوفاة ...

هي في العموم كانت مستسلمه لقدرها ..

وكانت العملية بالنسبة لها خلاص من عذاب الألم إما بالشفاء أو بالموت والحالتين راحة..

مرت الدقائق سريعا وأخذوا إيمان بالسرير المتحرك إلي غرفة العمليات ...

د. محمد دسوقي أشهر طبيب جراحات أورام المخ في مصر كان في إنتظارها ...

بجواره طاقم تمريض وطبيب التخدير ..

لفت نظرها ممرض تخدير ذات شعر أسود طويل لامع تقف بجوار الطبيب ..

تسائلت في نفسها .. أليس من المفترض ان يقوم طاقم التمريض بتغطية شعرهم؟؟

إبتسم الطبيب في إستقبالها وقال كلام سريعًا ما معناه أنها ستكون زي الفل وإن شاء الله تقومي بالسلامة لأولادك وبيتك وربت علي كف يدها ..

طبيب التخدير وضح لها تفاصيل التخدير وأعطاها إبره وسألها بعض الأسأله ...

و وسط حديثه معاها كانت إيمان قد دخلت الغيبوبة بالفعل ولم تشعر بالدنيا...

......

.....

....

بدأت إيمان تفوق بالتدريج .. كانت الرؤية ضبابية ..

وفي سريرها في غرفة المستشفى وحدها..

لا لم تكن وحدها ..

هناك صوت لطفل مولود يبكي..!!

كانت متوقعة أن تجد ألما شديدا في دماغها أو ضمادات علي رأسها ..

لكن غالبا دماغها سليمة..

إبتسمت وحمدت الله ..

الحمدلله أنها لا تزال علي قيد الحياة بالأساس ...

حاولت تفقد ملامح الغرفة.. غرفة مريحة جدًا لكن ليست نفس الغرفة التي كانت بها

علي باب الغرفة كتب رقم 105 ... وأين إبراهيم زوجها ؟!

حاولت أن تتحرك لكن وجدت ألما شديدا في بطنها جعلها تتوجع

فنامت من جديد مكانها ..

في نفس اللحظة دخلت ممرضة شقراء إلي الغرفة ..

ومن دون كلام إبتسمت وقالت بالإنجليزية

" Congratulation Marlene "

إيمان بحكم أنها ليسانس آداب إنجليزي كانت مستوعبة أن هذه الأنجليزية ..

لكن من أنت؟..

"فين إبراهيم ؟!"

نظرت الممرضة بدهشة شديدة جدًا!!

وخرجت ... دقيقة ودخل طبيب خواجة ومعه خواجة أجنبي أخر شاب أشقر بذراع موشوم..

الطبيب يحدثها بالإنجليزية ويقول "مبروك ... حاسة إيه؟! "

إيمان شعرت بقلق ..

"إنتوا مين ؟! وفي إيه؟ وفين إبراهيم ؟ وفين دكتور دسوقي ؟!"

الشاب الأشقر كان واقفا كالمجنون .. مين ده؟ هيئته ليست كهيئة طاقم المستشفي في الأساس .. ويرتدي ملابس كاجوال

نظر له الطبيب وسأله وقال ما معناه..

"هل لمارلين جذور شرق اوسطية ؟ تبدو كأنها تتحدث التركية أو العربية ؟!"

كل هذا جعل إيمان تبدأ بالتركيز..

أعادت النظر إلي تفاصيل الغرفة بتمعن أكثر..

هذا مكان مختلف تماما عن ما كانت فيه ..

ومن هذا الطبيب الخواجة ؟

رجل كبير وبنظارة وشعره أبيض كالثلج ..

ومن مارلين ؟؟

وقبل أن تستوعب دخلت الممرضة بطفل رضيع ورمته في حضنها وهي تقول لها أن الطفل لابد أن يرضع الآن !!

في هذه اللحظة إنهارت إيمان وهي تصرخ..."إنتوا ميييين؟"

وهي تبكي " يا إبراهيييييم" ..

الطبيب والأشقر - عرفت أن إسمه ماثيو – والممرضة جميعهم إرتبكوا وأخدوا المولود بعيدًا عنها بسرعة والطبيب يقول لماثيو أنه لابد من إدخالها لعمل الفحوصات .. لأن حالتها غير طبيعية ؟!

هذا غير أنهم لا يفهمون منها حرفا ؟!

ماثيو يقول متعجبا أن لأول مرة يعلم أن زوجته تتحدث لغات أخري غير الإنجليزية ؟!

إيمان تكاد تصاب بالجنون وهي تصرخ وتشير له بعصبية "مراتك مين؟!"

أيقنت إيمان في داخلها أنها حتما أصيبت بالجنون بعد العملية وأن ما يحدث الآن هو آثار ضرر ما أصاب المخ ..

أو أنها لا تزال تحلم وفي غيبوبة ...

دقيقة ودخل طبيب أخر ذو ملامح هندية واضحة ..

أسمر وشعره ناعم أسود وأيضا يتحدث الإنجليزية بلكنة هندية واضحة ..

أخبرها أنه طبيب نفسي وإسمه سارنيفاز وأنه جاء فقط ليطمن عليها

وأنه تم استدعاءه من الطبيب ستيف لشعوره البالغ بالقلق عليها؟!

وكان أول طلب أن سألها عن إسمها

"إيمان" ردت بهدوء و سكتت ..

وهو ينظر لها بتركيز ويحاول أن يلتقط أي إشارة ..

وسألها من جديد : "عندك كام سنة ؟"..

"٣٥ سنة "

سكوت من جديد .. الطبيب ينظر لها بعيون فاحصة وتركيز ثم سأل : "إسم زوجك ؟"

ردت بثبات " إبراهيم "

بدأ الهندي يكتب ما تقوله .. ثم سأل .." ساكنة فين؟؟"

ردت " في القاهرة.. في إمبابه"

بعد لحظة تفكير .. طلب الهندي من كل الحاضرين في الغرفة الخروج والإنفراد بالمريضة ..

بالفعل نفذوا كلامه بهدوء .. نظر الطبيب لإيمان وسألها

"أوك يا إيمان ..تاريخ النهارده كام؟"

سكتت قليلا لتستجلب الذاكرة وتفكر .. وقالت " تقريبا ١٤ مارس"

ضيق الدكتور عينيه وسألها ...

" 14 مارس سنة كام ؟؟ " بدون تردد جاوبت " ٢٠٢٥ "

إندهش الهندي وقال " إنتي عارفه إن دي المعلومة الوحيدة الصحيحة في كل كلامك ؟! "

ظلت إيمان ساكنه..

عاد يسألها " إنتي عارفة إنتي في المستشفى ليه؟"

ردت إيمان متوترة " أنا كنت داخله العمليات عشان ورم في المخ ..."

بدأ الهندي يقترب منها ويسألها " إوصفي زوجك شكله إيه؟! "

" طويل وأسمر وله لحيه خفيفه .. شعره أسود "..

وسكتت لأنها لا تعرف كيف تصف الشعر الأكرت الخشن بالإنجليزية

كان الهندي يكتب وراءها بسرعة...

5 دقائق مرت والهندي صامت ينظر إلي إيمان ويفكر..

ثم قام و قال لها أن تنتظر لثواني وسيعود فورا ..

خرج من الغرفة .. الألم في بطن إيمان كان شديدا ..

رفعت الغطاء لتري سبب الألم ..

وجدت القطن و بلاستر الجراحة علي بطنها...

كأن العملية في بطنها!! ..

عاد الطبيب الهندي ومعه مرآة !! ...

وضعها أمامها وهو يراقبها..

نظرت إيمان وشهقت وهي تتحسس وجهها .. "مين دي ؟!"

ملامح لفتاة بيضاء عيونها زرقاء وشقراء .. "مين دي؟!!!"

تحسست وجهها من جديد لتتاكد انها هي .. شدت شعرها ..

ولم تتحمل أكثر وبدأت تصرخ ...

بسرعة وضع الهندي المرآة جانبا ونادي التمريض كي يعطوها المهديء ..

بدأ جسم إيمان يرتخي وجلس الطبيب الهندي جانبها مرة أخري ..

أخذ نفسا عميقا وبدأ بهدوء يتكلم " مارلين .. أو إيمان أي كان .. أنا هندوسي .. من أصول هندية كما بالتأكيد لاحظتي .."

تنهد كأنما يحاول ترتيب أفكاره وأكمل " ديني فيه معتقد عن تناسخ الأرواح .. أنا شخصيا ورغم اني متدين .. ولكن هذا المعتقد عندي مستبعد وخيالي جدًا " ..

" لكن الحالة التي أراها أمامي ليست حالة إرتباك من أثر التخدير ولا أي حالة نفسية مفهومة ولا لها تفسير سوي أن هناك تبديل ما حدث أو روحك حلت في جسم مارلين أو شيء ما انا غير قادر علي استيعابه .. إنتي فاهمة كلامي يا مارلين؟" ..

في عصبية ردت إيمان:

" إسمي إيمان .. ولأ .. مش فاهمة منك حاجة "

إبتسم الهندي وقال :

" أنا كمان لا زلت غير فاهم لكن أعتقد أنك حاله فريدة جدًا من نوعك ولابد أن يتم دراستك بشكل جيد .. أنا همنع عنك أي زيارات حاليا وستأخذين المهديء حتي تنامي .. هنالك زميل طبيب عربي عراقي معنا في المستشفي و يتحدث العربية .. عندما تستيقظين سيكون موجودا و يتحدث معكي وتشرحي له أكثر .. إنتي عارفه إنتي فين؟"

ظلت إيمان صامته ومنتظرة الإجابة ... أكمل هو كلامه وقال:

"إنتي في مستشفى في ولاية كارولينا الشمالية .. وماثيو هذا زوجك وأنتي مارلين و كنتي داخله العمليات لأنه جالك مولود طفل ذكر بعد عملية قيصرية حرجة لظروف لا داعي لشرحها الآّن .. أراهنك أنك تسمعي الكلام هذا لأول مره ..."

سكوت تام وهو ينظر لها بثبات

" لو صح هزي رأسك"

هزت إيمان رأسها برعب وهي تبكي ..

تبكي بحرقة ...

أخرج الطبيب الهندي من جيبه إبره وغرسها في وريد ذراعها وإفرغ ما فيها وقال" هتنامي وتسترخي .. و عندما تستيقظي سيكون الطبيب العراقي موجودا"

وأنسحب وعي إيمان من الدنيا في لحظة ...

....

...

..

بدأ عقل إيمان يستوعب بالتدريج أنه يعود لأرض الواقع ..

تسمع صوت بكاء لشخص ما ..

ثم شعرت بشخص يقبل يدها بدموع ويقول " الحمدلله يارب. .. الحمدلله"

نظرت بطرف عينيها والصداع في رأسها رهيب .. وجدت إبراهيم !!..

إبتسمت وبكت .. وقالت "إنت إبراهيم صح؟!"

" أيوه يا حبيبتي حمدلله علي سلامتك " ..

سألته بصوت ضعيف " إبراهيم هو أنا ولدت ؟"

إبراهيم ينظر إليها بعيون شفقة وصمت ..

سألته من جديد بإلحاح عصبي " أنا دخلت العمليات ليه ؟ "..

صمت .. ولكن ظل حاضن يديها ويقول " الحمدلله إنك قمتي بالسلامة .. أنا قلت خلاص هتروحي مني"

في ضيق عادت إيمان تسأله "يا إبراهيم.. أنا ولدت؟!"

" ولدت إيه بس يا حبيبتي ؟ إنتي التخدير لسه مأثر فيكي"

" أنا مصدعه أوي ..."

دخل الطبيب دسوقي وقال

" حمدالله علي سلامتك يا مدام .. هيبقي في شوية صداع وهيقل بالتدريج.. وهنمشي مع المسكنات فترة وهنأخذ العلاج الكيماوي بعد كده .. هشرح كل حاجة بالتفصيل بعدين .. المهم إنك بخير"

" مش مهم " قالتها إيمان ..

وهي تقصد بالفعل أن كل هذا غير مهم ..

يحصل الي يحصل ..

المهم أنها عادت الي إمبابه من جديد

رفعت يدها لتمسح دموعها عن وجهها .. لمحت سوار بلاستيكي يحيط يدها لونه أخضر مكتوب عليه بالإنجليزية ..

نظرت بتمعن ... مكتوب عليه " المريضة مارلين .. غرفة 105 "

علي الفور نظرت إلي باب غرفتها المفتوحة ...

لا يوجد أي أرقام علي الباب ... ولكن .

لمحت ممرضة ذات شعر أسود طويل لامع تعبر من أمام الغرفة وهي تحمل طفلاً رضيعاً .. توقفت أمام الغرفة للحظات .. نظرت إلي إيمان لثواني ...

ثم أنصرفت ...

مولد
سيدي البسيط

لا أعرف من أين أبدأ القصة ؟

الموضوع بدأ كفضول إتجاة الطقوس الصوفية كل شيء بدأ بفضول بريء تجاه الطقوس الصوفية...

كنت أزور الموالد كهاوي مراقبة، أدوّن بعد كل زيارة خواطري عن الروحانيات والعشوائية، عن القداسة والإبتذال.
لكن ما لم أكن أعرفه ، أن إحدى هذه الزيارات ستوقظ شيئًا قديمًا... شيئًا نسيته منذ زمن بعيد.

تعرف أن الإحتلال الإنجليزي كان يخدع المصريين لعلمهم بطيبتهم و حميتهم تجاه الدين بعمل المقامات علي أساس أنها لشيخ صوفي ما مكشوف عنه الحجاب أو له كرامات؟

والسبب رغبتهم في إضعاف دور الأزهر...

السبب الأخر لعمل جماعات ذات قيادات تخضع لسيطرتهم لإقناع الناس بالرضاء بالقدر والقبول بالإحتلال..

كنت أحب مشاهدة الموالد و زيارة الأضرحة ..

زرت مولد السيد البدوي ومولد الإمام الحسين و المرسي أبو العباس والدسوقي وغيرهم .

لففت جميع المحافظات والقري .. ضواحي القاهرة و الإسكندرية و الزقازيق وميت غمر و كفر شديد ...

أحب مشاهدة الأجواء .. وإن كنت أشعر في بعض الأحيان بالروحانيات ..

وأوقات أخري كان الموضوع ينقلب إلي جنون وشعوذة.

ساعات أقضيها وسطهم في إستمتاع ومن ثم أعود من جديد لحياتي الروتينية..

وفي يوم صيفي عام 2023 إنتقلت للعمل في مشروع في محافظة بني سويف .

شهور مرت وسط الأهالي هناك .. حياة بسيطة.. بعيدة عن زحام القاهرة ..

حتي جاء أحد العمال طالبا أجازة ليوم والسبب "مولد سيدي البسيط" !

أنا لا أمانع أن يأخذ العامل الأجازه التي يرغب بها لكن بعد أن يروي فضولي أولا..

مين سيدي البسيط ؟؟؟

ببساطة .. القصة أن هذا المولد يقام كل ٥ سنوات في هذه القرية النائية ..

قرية الباسوط ..

إسم القرية الغريب لفت نظري منذ أول يوم وإن لم أعره أي إهتمام ..

وشرح لي أن غالبا اسم القرية مرتبط بإسم سيدي البسيط ..

وأنه – كالعادة - ولي من أولياء الله الصالحين ..

وأنه لم يكن بشريا.

سألته : "ملاك يعني؟"

رد ببساطة : "لا أعلم".

"وهل هنالك طقوس معينة ؟"

قال " لا يحضرها أحد من أهل القرية"

سألته متعجبا : " أمال عايز أجازه ليه؟ "

رد بكل بساطة : "السبب أنه ممنوع في هذا اليوم علي أهل القرية الخروج من البيت.. ثم يتوالي أتباعه و موريديه من كل مصر متلثمين بزيارة قبره .. وبعد إنتهاء الزيارة و المراسم.. يقوموا بترك الموسم "

سألته متعجبا : " ماذا تعني بالموسم؟"

" الأكل والمال.. يتركونه أمام باب كل بيت من بيوت القرية هدية للأهالي علي حسن الضيافة و من ثم يقومون بمغادرة القرية في اليوم التالي صباحا".

ثم أكمل متحمسا "في الحقيقة .. في هذا اليوم يعم الخير علي كل سكان القرية "..

إستفز فضولي جدًا هذا العامل .. وطبعا بحكم خبرتي في هذه الأمور ومن كثر ما زرت هذه الموالد ..لم أجد تفسيرا أو سببا أن يكون الزوار ملثمين.!

هل هم من المشاهير والغير راغبين أن يعرف شخصيتهم أحد؟

الوسط الفني والسياسي مليء بالصوفية بشكل عام

لم أنتظر أكثر

وقررت ..

وأخذت قراري بزيارة سيدي البسيط ..

وفي اليوم الموعود قمت انا الآخر بعمل أجازة وإتجهت لقرية الباسوط

ومن قبل أن أصل الي القرية بمسافة كيلو .. وقف الباص رافضا أن يكمل الي داخل القرية وقال السائق :" ده أخرنا النهارده يا جماعة .. القرية اليوم ليست لنا "

لاحظت أفواج الملثمين من الرجال والحريم في إتجاهم سيرا علي أقدامهم للقرية..

كنت قد توقعت هذا السيناريو و أعددت عدتي ..

وأخفيت وجهي تماما تاركا فقط عيوني ..

وبدأت السير الي القرية مراقبا الأجواء في فضول جم ..

كان بعضهم يسير حاملا أعلاما صفراء ..

البعض يسير مناديا بصوت عالي "يا بسيط .. يا بسيط .. خد بإيدنا للطريق".

"يا بسيط يا بسيط. ارجع تاني واستفيق "

الجميل أن جميعهم يحملون المتاع الثقيل ..

المتاع المحمل بالأكل و المال و الهدايا يوزعونها بإنتظام وبسخاء أمام بيوت الأهالي بالفعل ..

الكثير من المال في الحقيقة...

الأجمل عدم وجود اللصوص أو الطماعين ..

التوزيع يتم في تناغم وسلام مثير للدهشة..

حتي الأهالي لم يقم أي منهم بفتح باب بيته ..

إلتزام تام أن اليوم هو للزوار فقط

حتي ينصرفوا ...

مشيت معهم ولاحظت أن الجمع يسير في إتجاه الجبل ..

بالتأكيد هذا إتجاه المقام .. الأجواء كانت غريبة وحماسية ..

والجو حار و مترب ..

بعض الملثمين راكبين الفرس ..

والكل متجه للجبل ..

قدرت الأعداد أنها قد تصل إلي 500 رجل و سيدة ..

بدأنا الوصول لأطراف القرية وبداية الجبل ..

لاحظت صخرة كبيرة مرفوع عليها نفس الأعلام الصفراء و لافته كبيرة "للأمام يا بسيط"

والناس تسير في إنتظام الي ما خلف الصخرة ...

وحين وصلت خلف الصخرة وجدت الكهف ...

يبدو أن البسيط مدفون في كهف ..

دخلت معهم الكهف وأنا أشعر بالحماس للأجواء و الأغاني التي يغنونها ..

ورغم هذا لاحظت أنه لا حوار يدور بينهم وبين بعضهم ..

لا حديث بينهم ..

كلهم إما ساكتين وإما يغنون ...

الكهف من الداخل مضاء بإستخدام المشاعل ...

نور اللهب مع ظلام الكهف جعل الإحساس غريبا ..

لم يكن خوفا ..

لا خوف وسط هذه الأعداد الغفيرة من الناس ..

بل بالعكس كانوا جميعا سعداء ..

وعلي جدران الكهف رسومات بدائية

تحكي شبه قصة عن معركة ما .. وشخص ما يراكب الفرس ويحارب وفي يده بلطة ضخمة ..

لكن هذا الشخص – رغم أن الرسم بشع وطفولي – له شعر كثيف وربما قرون كذلك !!

خرافات معتادة ..

فجأة توقف الفوج ..

توقفوا أمام مقام بالفعل وسط حوش كبير داخل الكهف ..

بدأوا في وضع المشاعل علي الأرض ..

وقفوا جميعا علي شكل دائرة كبيرة ثم دائرة أخري و دائرة أخري ...

سكوت .. توقفوا عن الغناء ...

ثم بدأوا نزع اللثام عن الوجوه ....

بدأت التوتر ...

ومع أول لثام يكشف فهمت الحقيقة ...

لا أعلم كيف أصف أشكالهم ...

لكن هم أقرب لمسوخ مشوهه ..

العيون عيون بشر ..

أما باقي الوجه فهو تشوهه و قروح وجروح وحروق وكل ما هو بشع ويمكنك تخيله ..

كان اللثام ينزع عن الوجوه واحد تلو الاخر في إنتظام مدروس ...

أنا في ورطة ..

ما العمل ؟ ..

دقائق و سيصل دوري ..

ماذا هم فاعلون لو علموا أني إندسست وسطهم ؟؟

كيف سأنسحب من وسطهم ؟..

من خلفي دوائر ودوائر من المسوخ ..

صرت محاصرا ولا سبيل للخروج..

حتي جاء دوري ..

ترددت ...

مرت دقيقة كاملة...

الكل ينظر لي بثبات الآّن ..

نزعت اللثام عن وجهي في بطء و تردد ..

لحظات سكوت ..

نظراتهم كلهم بلا إستثناء نحوي ..

بينما أنظر أنا إليهم في هدوء ..

إقترب أحدهم مني وبصوت مبحوح قال " أخيرا إستفقت يا من ضل طريقه ؟"

وبدأوا جميعًا يبتسمون لي ... كأنهم يتعرفون علي .. كأني واحد منهم ..

وأكمل كلامه " نحن لم ننسي ولم نفقد فيك الأمل "

بدأت أشعر أن ذاكرة بعيدة في آّخر مخي تعود الي السطح ...

حياة قديمة و حروب قديمة ..

أتباع ..

أسياد ...

إجتمعوا جميعهم حولي و نادوا بصوت واحد " الباسوط ... الباسوط "

النداهة

كنت عائدا من السفر إلي قريتي الصغيرة في كفر الشيخ ..

أفتقد بشدة الأرض الخضراء والنيل ورائحة الطبيعة وصيد السمك ...

مغترب لفترات طويلة...

كانت الرغبة ملحة أن أصطاد سمك الفجر في جزيرة الموز وأستعيد ذكريات الماضي..

جزيرة الموز هي قطعة أرض بارزه لقلب مسار النيل ..

بجوار مدخل القرية خلف مقهي عم مرعي ....

تلك الجزيرة الصغيره جدًا مغطاة بالكامل بأشجار الموز التي تجهل المارة لا يستطيعون إكتشافها بسهولة ..

و علي أطراف الجزيرة , وضع الصيادون إطارات السيارات مربوطة ومشدودة بحبل غليظ كمرساة بدائية للقوارب.

الميزه فيها أنها تضعك في قلب النيل وحدك

يقال كذلك أن السمك فيها أكثر وأكبر حجما .. أخذت صنارتي والطعم وأنطلقت مبكرا قبل الشمس أن تشتد علي الجزيرة ..

وحيد بالمكان تماما وهدوء شديد...

إلا من صوت كروان يعبر من فوقي طائرا ..

مررت من خلال أشجار الموز ثم وقع قلبي في رجلي...

وجدت بنت جميلة في وجهي فجأة ..

البنت إمتقع وجهها في رعب أكثر مني وكادت أن تصرخ ولكن حين نظرت إلي يداي وأنا ممسك بالصناره ..

هدأت و أستجمعت أنفاسها وسألت :" انت مين؟"

قلت لها : أنا دكتور محمد إبن الحج دسوقي عبدالله.. يمكن علشان علي طول مسافر محدش يعرفني ما تخافيش."

كانت ملامحها هادئة وبسيطة وجميلة .. جدًا..

ذات شعر أسود طويل لامع ...

ولكن لاحظت الدموع في عينيها.

ولكي أجعلها تطمئن لوجودي ,اخذت حجرا كبيرا ووضعته بجنب الشط وجلست فوقه وبدأت التجهيز للصيد ..

ولما شعرت هي بالأمان جلست هي الأخري مع الاحتفاظ بيني وبينها بمسافة حوالي ٤ أمتار بينما تنظر هي سارحة للنيل ...

سألتها من دون النظر إليها :

"بتعملي إيه هنا وحدك الفجر كده؟ مش خايفه ؟"

ردت - دون أن تلتفت إلي -" لأ مش خايفه .. محدش غريب بيجي البلد هنا .. وبلدنا مفهاش أي طمع كده كده" ثم سكتت قليلا وأكملت :

"باجي هنا أفتكر حبيبي وزوجي الي راح مني وغرق هنا علي شط الجزيرة , بزوره كل لما يوحشني"

الموضوع أثار إهتمامي ، نظرت إليها وسألت: "غرق إزاي؟"

سكتت قليلا .. كانت متردده فقلت لها:" لو مش حابه تحكي بلاش"

قالت:" هي ذكريات صعبه . بس هحكيلك"

"كان إسمه أسامه خرج مع ٢ زملائه (ياسر و عبيد) في يوم زي النهارده علشان يسبحوا في الميه ويصطادوا إختاروا جزيرة الموز وفضلوا هنا يمكن ٤ ساعات لعب وضحك وعوم لحد ما قبل المغرب قرروا ياخدوا آخر غطس ويتشطفوا ويروحوا

عبيد نزل إلي الماء الأول وفي ثواني نزل وأختفي أسامه نزل وراه علشان ينقذه إختفي هو كمان ياسر خاف وطلع جري علي الأهل علشان يلحقوا ... وقبل العشاء ظهرت جثه عبيد علي بعد ٢٠ متر وفضل أسامه مختفي ياسر يا عيني كان إتجنن وبيخرف يقول النداهه أخدتهم"

سكتت قليلا وكأن الذكريات سكاكين تقطع أحشائها من الألم ..

ثم أكملت بصوت متأثر:

"الأهالي لما تعبوا من البحث لنص الليل ، راحوا للشيخ (حمدان) وقالهم : مين أجمل شاب فيهم؟ (عبيد) ولا (أسامه) ؟

قالوا طبعا (أسامه) !! بس (عبيد) برده كان شاب وجميل قالهم مين فيهم كان معيوب ؟"

إندهشت وسألتها "يعني ايه معيوب؟"

ردت شارحه : "يعني فيه عيب خلقي أو مشكلة في جسمه , فقالوا (عبيد) كان عنده حرق في رجله الشمال وكان بيعرج في المشي"

" قالهم: تبقي النداهه وعلشان كده أخدت (أسامه) لأنها مش بتاخد حد معيوب , أم (أسامه) يا عيني فضلت تصرخ منهاره وتقول عايزه ولدي,

الشيخ حمدان قالها: تروحي لجزيرة الموز إنتي والحريم وتزغرطوا وتصقفوا وتاخدوا معاكم حلويات وملبس ترموها في النيل مكان ما إختفوا عرفوا النداهه إنكم فرحانين بدخلت إبنكم.

وإن اليوم يوم فرحه ، بعدها اطلبي منها ترجعه بعد دخلته لأمه تاني, مش هتظهر جثته غير كده."

كنت قد بدأت أشعر بالتوتر من الحكاية السوداء هذه...

أنا لا أصدق في الخرافات ولكن سألتها وأنا مندهش :

"وأمه عملت كده؟"

ردت بحزن: "عملت كل دا للأسف ... رجعت الأم ومعاها الخالات لجزيرة الموز وهما بيزغرطوا وبيرموا ملبس وهدايا في النيل

ساعة كاملة طبل وأغاني وزغاريط , وبعدها إنسحبت الخالات بعيدًا خارج الجزيرة وفضلت الأم تبكي بالساعات وتقول للنداهه رجعي لي إبني لما يخلص دخلته وفضلت تلح وتبكي ....

ساعات دون ملل علشان علي الساعة ٣ قبل الفجر تظهر جثة (أسامه) منفوخة علي شط الجزيرة"

سكتت البنت ، فا سألتها :" بتقولي للأسف ؟! طيب ليه للأسف؟"

لم ترد علي سؤالي...

ولما طال السكوت نظرت تجاهها بطرف عيني فلم أجدها جالسة في موضعها ..

فا ألتفت مسرعا خلفي لأجدها واقفة ورائي و تنظر إلي وتقول "علشان هي كانت حبت (أسامه) بجد وكانت فرحانة بيه وراح منها ودلوقتي رجعت وحيدة بتدور علي عريس جديد"

نهضت مفزوعا من مكاني وألقيت بالصنارة ..

كانت البنت واقفة خلفي تماما وظهري للنيل..

أي خطوة سأسقط فورا في الماء.

لاحظت أنها صارت أطول مني بوضوح ونظراتها إلي كانت غريبة جدًا

نظرة غرام؟! إعجاب؟!

إرتبكت وقد تملكني الخوف و الحيرة وقلبي يدق بجنون ...

أصرخ ولا أعمل إية؟

كانت تنظر إلي فاحصة من أعلي إلي أسفل باعجاب وهي تقترب...

كانت الأن لا تسير بخطوات ...

كانت كأنها تطفو في الهواء ببطء

ثم أمسكت بوجهي بكفيها بقوة وهي تنظر إلي عيني وتقول " إنت مناسب جدًا يا (محمد) , لسه مش فاهم؟"

بسهولة رفعتني في الهواء بينما أنا أقاوم بكل قوة ...

سددت الركلات إلي بطنها التي يبدو أنها دون تأثير ...

حاولت الصراخ ولكن مخالبها الطويلة كانت قد غرزتها في فكي لتوسع من فمي فلا أتمكن من الصراخ...

ملامحها إزدادت غلاظة و لكن – للعجب - لا زالت جميلة ...

ثم بدأت تغمرني في الماء بينما تشبثت بكل قوتي في الإطارات و الحبل الغليظ للمرفأ البدائي ..

كانت قوية جدًا و ما زالت تسحبني للماء بكل إصرار وقوة ..

أنا متشبث بالإطارات بكل ما تبقي لدي من رغبه في الحياة... و أوشكت علي الإنهيار ..

كان الألم في كتفي الأيسر قد أصبح لا يطاق..

ذلك الكتف الذي قمت قبل 4 سنوات بعمل عملية جراحية فيه وزراعة مسامير و شرائح بعد حادث مروري .. فصرخت ...

هنا توقفت هي عن السحب وظهرت بوجهها من تحت الماء و هي غاضبة و تنظر إلي كتفي وتسأل بصوت صارخ مبحوح غريب قادم من الجحيم " إنت فيك إيه ؟ كتفك ماله؟"

نزعت بمخالبها القميص من علي كتفي بقسوة فمزقته بينما كنت أنا أصرخ من الألم , فوجدت الجرح في كتفي و فهمت .

في نفس اللحظة ظهر قارب صيد من طرف الجزية البعيد وقد قرر صاحبه أن يرسو عائدا من رحلته .

وصل في الوقت المناسب ...

فمجرد ظهوره غطست هي في الماء في ثانية وأختفت تماما تاركة خلفها دوامة صغيرة في الماء.

ليقترب الصياد مني مسرعا بعد أن لاحظني و بسرعة متلهفا قام بالإمساك بي و سحبي من جديد إلي الشاطيء.

كنت علي وشك الإغماء و أنا بذهن مشتت أقول دون ترتيب ودون إدراك " مشيني من هنا , النداهه "

كأن الرجل يعرف القصة لم يبد أي إندهاش أو تعجب ...

نظرت لوجهه في إمتنان ...

كانت له عين تغطيها سحابة بيضاء.

أنقذني ذلك الصياد الشهم قبل أن أغرق وتسحبني النداهة ..

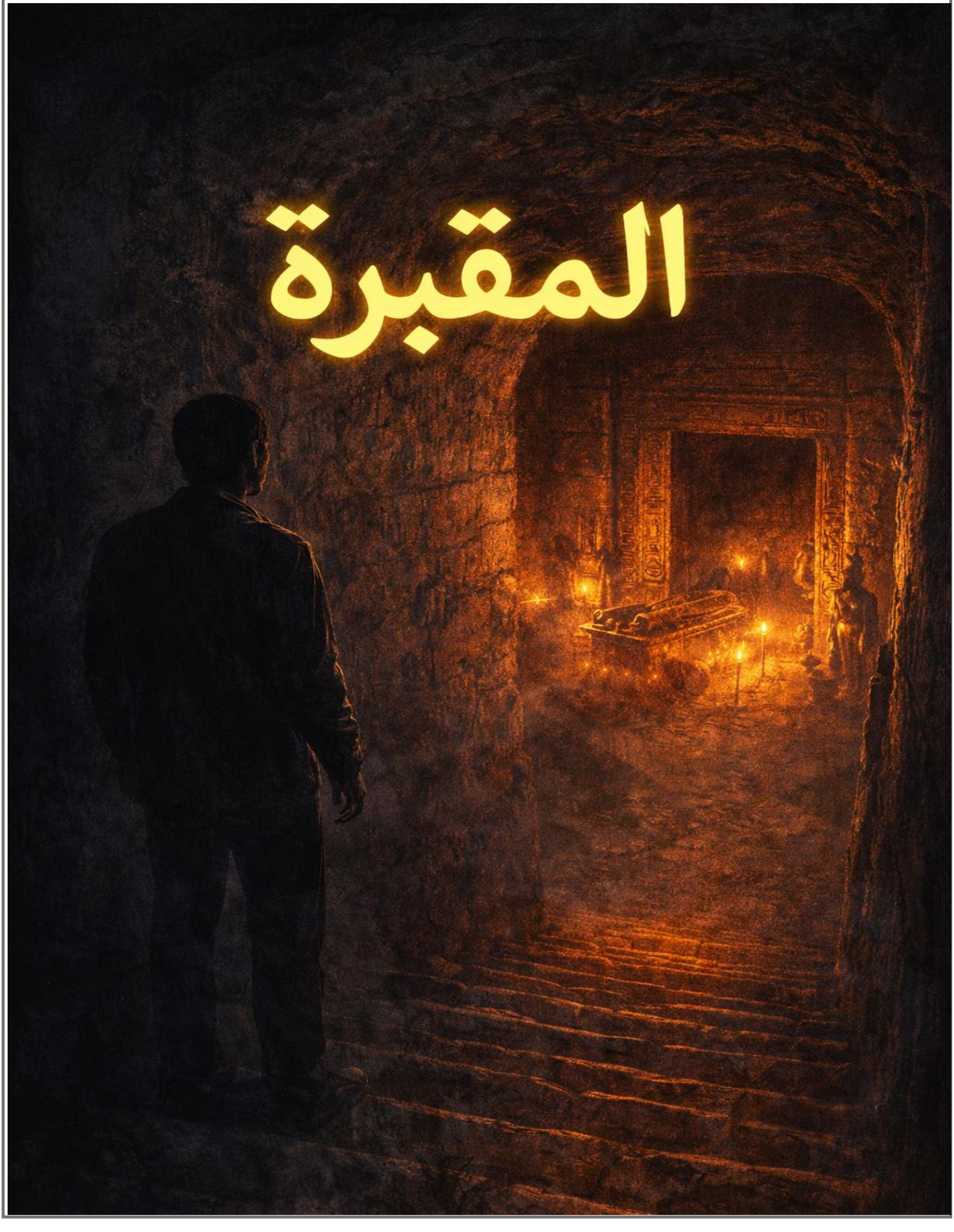
المقبرة

ذكريات تطاردني مع كل ليلة تمر علي وحدي منذ أكثر من 20 سنة ..

الخوف من تجربة فشلت بكل الطرق أن أمسحها من ذكرياتي حتي أستطيع أن أكمل ما تبقي من حياتي ..

كل ليلة تمر علي وحيدًا أنتظر فيها مصيراً مجهولًا مرعباً لا أعلمه ..

وصارت رغبتي الدائمة أن أحاط بالناس من حولي وأن لا أبقي وحيدا أبدًا.

أزور بشكل يومي بيت الحج (حمدان) في النهار ... أدور حوله ..

لأتأكد و أطمئن ان البيت هاديء وميت كما هو ..

وأن الخوف والرعب والأسرار في قلب البيت لم تخرج خارجه ...

وقبل الليل ...

أهرب بعيدًا عن البيت كهروبي من الموت نفسه..

وأسأل نفسي .. هل إستطعت أن أدفن السر ؟؟

هل سيامحني ربي علي ما حدث تلك الليلة الي قضيتها في ذلك البيت الملعون؟

هل القصة فعلاً إنتهت؟

البداية كانت ليلة في شتاء 2002 ..

عندما إتفق معي (أنور) إبن الحج (حمدان) - الله يرحمه - صديق طفولتي علي فتح المقبرة الفرعونية تحت بيت جده ...

كان قد إستعد جيدًا ..

مع التأكيد أن السر لابد أن يبقي بيننا فقط ...

لا أصدقاء ..

لا أهل ..

لا سبيل للمزاح أو أي حديث في هذا الشأن..

نستخرج الكنز المزعوم ... ونختفي ..

كنت خائفًا و متوترًا بشده ..

لكن الطمع و الحال الضنك جعلني أوافق علي مشاركته دون تردد ..

كان ينتظرني في بيت جده الساعة 12 بعد منتصف الليل ..

طرقت باب البيت العتيق في رفق...

فتح (أنور) الباب ..

دخلت و هوه ينظر يمينًا و ينظر يسارًا ..

لا مخلوق في الشارع و الدنيا سكون ..

أدخلني وأغلق الباب في حذر..

سألني :" حد شافك ؟؟" " لا " ...." حكيت مع أي حد؟؟" "لا" ..."أوعي يا (نجيب) الموضوع ده مفهوش هزار" .. "يا عم والله لأ" ..

دخلنا إلي حوش البيت ..

بيت من البيوت القديمة بحوش كبير في الوسط ..

الغرف علي اليمين و اليسار بينما إرتفاع السقف قد يصل إلي 5 أمتار تقريبًا ..

أيام الخير و المساحات الكبيرة و العائلات الكبيرة أيضًا ..

البيت مظلم جدًا... وكان في وسط الحوش حفرة كبيرة ...

(أنور) كان قد أحضر كشافين بطارية ولفة حبل و جهازين لا سلكي الله وحده أعلم كيف أتي بهم ..

كان يغطي الحفرة بلوح خشبي 3 متر في 3 متر ..

وعندما أزاح اللوح وجدت سلم درج !!

درج غويط لأسفل الأرض لا نهاية له ..

سألت (أنور) :" (أنور) إنت هتنزل الدرج ده ؟؟ وهيوصلك علي فين ؟؟"

رد :" أي كان .. هناك هلاقي الكنز الي جدي ياما حكي عنه زمان تحت البيت .. أنا قتيل المصلحة دي" ..

نظرت في عينيه .. عيون مجنون فقد السيطرة نهائيًا والعودة مستحيلة ..

وفجأة وجدناه خارجًا من الحفرة ؟!!...

ديك أسود .. !!

في البداية شعرنا بصوت خطواته الخفيفة ..

وأمسك (أنور) بذراعي متوجسًا .. فسلطنا الكشاف لنراه.

بصوت مرعوب سألته :" ايه الديك ده وجاي منين ؟"

سكت قليلًا وهو يفكر ثم بتردد قال :" معرفش !! جايز نط من سطح حد من الجيران و سهاني ونزل هنا ولما فتحنا ما صدق طلع !"

سكتنا وخرج الديك من الحفره و أنطلق يدور في الحوش كمن يبحث عن طريق للخروج ..

سألته : "خطتك إيه ؟"

رد بكل ثقة :" أنا هربط نفسي بالحبل دا من وسطي وهنزل وإنت هتستني هنا ونتابع بعض بالاسلكي .. الحبل دا طوله 100 متر وأظن مش هنحتاج أكثر من كده يعني"

سكت وبدأ يلف الحبل حول وسطه ...

هدوء الشارع غريب ..

لا وجود لأي صوت سوي صوت غراب ينعق من مكان قريب !!

غراب بالليل ؟؟ جايز..

أمسك (أنور) الكشاف وسلطه علي الدرج العتيق ..

رائحة بشعة بشكل لا يوصف خارجة من قلب الحفرة ..

ألعن رائحة يمكن تخيلها..

كتمت أنفاسي من هول الرائحة .. و(أنور) لم يبالي ..

أو لعل الرائحة دمرت خلايا حاسة الشم عنده.

بدأ (أنور) النزول .. ينزل ينزل ينزل حتي صرت لا أراه ...

وسمعته من اللاسلكي ينادي :" (نجيب) .. السلم ده غويط أوي ومش باين له نهاية !!"

كنت متوتر جدًا وواقف وحدي ..

نسيت أقول أن الديك أيضًا إختفي ..

لم و لن أخبر (أنور) حتي لا يتشتت ذهنه بأمور لا داعي لها ..

بصوت قلق قلت :" (أنور) ... ما بلاش .. إطلع و تعال نسأل حد بيفهم في الأمور دي"

- "بس بقي إجمد .. أنا مكمل "

إستمر أنور في النزول تباعًا والحبل في يدي ينسحب برتابة وإنتظام ..

لحظات سكوت....

ثم سمعت صوت (أنور) في الراديو مدهوشًا :" (نجيب) ... ده في نور تحت!!"

-" نور؟؟"

-" اه والله نور ... إيه الكلام ده وإزاي ؟"

كان بدأ يتحدث بهمس ..

وشعرت من صوته بالخوف ...

وسحب الحبل أصبح بطيئًا .. ما معناه أنه بدأ التردد والقلق.

-" ما تطلع يا (أنور) "

-" هششششش"

لاحظت أنه بدون أن ننتبه .. سحب (أنور) نصف الحبل !! ..

(أنور) هبط حوالي 50 متر تحت الأرض !!

مرت 5 دقائق من السكوت ولاحظت أن يداي ترتجفان ..

فجأة سمعت صوت (أنور) بسعادة غامرة :" ولا يا (نجيب) ... إيه كل الذهب دا ؟؟ كنوووز ... يا دين النبي !! أقنعه وتماثيل و مجوهرات .. لعبت يا عم الحج خلاص ... بس أنا لسه مش فاهم النور دا جاي منين برده ؟!! إنت سامعني ؟"

غمرتني السعادة و الراحة بينما يصف أنورالكنز:" سامعك سامعك يا (أنور) ... طيب هتعمل إيه ؟"

-" بص أنا هقلع الجلابية و أعملها شكارة أعبي فيها الي أقدر عليه و أطلع لك و ...."

وسمعته يصرخ صرخة لم أسمع أبشع ولا أفظع منها في حياتي ...

وفي أقل من ثانية إنسحب الباقي من الحبل لقلب الحفرة ..

إستلقيت علي الأرض بجانب الحفرة أحاول أن أرمي بعيني داخلها ..

ربما أفهم أو أري أي شيء وأنادي بصريخ مكتوم :" (أنور) ... (أنور)" !!

لا رد ... ولا أدري ما العمل !!...

10 دقائق مروا علي كأنهم الدهر ...

فجأة سمعت الراديو اللا سلكي يخروش بأصوات غير مفهومة ..

بعدها سمعت صوت (أنور) .. صوته هاديء تمامًا و ساكن ولكن نفسه ثقيل وهو يقول :" الموضوع ده مش هينفع يا (نجيب) ... أنا غلطان و أستاهل ... سامحني يا (نجيب) ... بالله عليك ما تعرف أي حد إني نزلت هنا ... ولا تحكي لأمي أي حاجه ...وإقفل الغطا تاني بتاع الحفرة و إردم عليا .. أنا مش هطلع تاني !!!! "

وسكت !! ...

قلبي علي وشك أن يسكت هو الأخر ... ولا أقدر علي الكلام ...

بصعوبة بلعت ريقي و بصوت مرتعش قلت له :" (أنور) .. يا (أنور) إيه الهبل الي بتقوله ده ؟؟ إطلع يا (أنور)" ..

ثم حدثت اللحظة التي لن أقدر علي مسحها من خلايا مخي ولن أقدر علي نسيانها حين سمعت ذلك الصوت الغليظ المعدني الأجش الخارج من اللاسلكي : "(أنور) مات يا (نجيب)" .

أحمد نجيب

هل كل من ينجو... يعود؟

في هذه المجموعة، لا يأتي الرعب من الأشباح أو الظلال الصاخبة،
بل من لحظات عادية تنحرف بهدوء
طريق جانبي في الفجر،
مقهى في قرية منسية،
مرآة تعكس أكثر مما ينبغي،
مكان يتذكّرك... حتى بعد أن تنساه.

الذين لم يعودوا » مجموعة قصص رعب نفسي ووجودي،»
عن أناس عاديين تعثّروا في ما لا يجب أن يُرى،
أو سمعوا ما لا يجب أن يُسمع،
فاكتشفوا أن المعرفة قد تكون عبئًا،
وأن النجاة ليست دائمًا خلاصًا.

هذه ليست قصصًا عمّا نخشاه،
بل عمّا نكتشفه...
حين يتغيّر شيء صغير في الواقع،
ولا نعود كما كنا أبدا.